أحمد حسن الباقورى

الدين و التدين

سـكرتير تحرير تنفيذىَ

محمد عفت

والموتيفات الداخلية

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهـــــداء

إلى شعوب أمتنا ممثلة فى ملوكها ورؤسائها وشيوخها وأمرائها وذوى الرأى فيها . .

وفى طليعتهم الرئيس محمد حسنى مبارك أهدى كتابى هذا

باسطا إلى الله يد الضراعة أن يجمع كلمتهم ، ويوحد صفهم ، على إحقاق الحق ، ودعم العدل ، وتأييد السلام

والله سميع مجيب الدعاء .

أحمد حسن الباقورى

بسم الله الرحمن الرحيم

طليعة الكتاب

اللهم لك الحمد على ترادف نعمائك وتتابع آلائك ، حمدا يديم لأهل الايمان أفاويق(*) النعماء ، وينيم عنهم أهاويل البلاء ، ويليق بجلال ذى الجلال والإكرام ، فإنا لا نحصى ثناء عليك ، أنت ـ سبحانك ـ كما أثنيت على نفسك .

اللهم وإليك الضراعة ، ان تصلى على محمد وآل محمد ، كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم ، فى العالمين إنك حميد مجيد .

---

* الافاويق : اللبن الذى يجتمع فى الضرع بين الحلبتين . والمعنى ، ان شكر الله تتجدد به انعمه على عباده بعد حين .

ثم أما بعد . فهذه كلمات حول الدين نستجيب بها رغبتك ، ضارعين إلى الله ـ تعالى وعز ـ أن يجنبك الشبهة ، ويعصمك من الحيرة ، ويذيقك حلاوة التقوى ، ويشعر قلبك عز اليقين .

□ □ □

ولئن تفضل الله بقبول هذه الضراعة ، ليكونن ـ سبحانه ـ قد أفاء عليك وأفاء علينا بك من فيض رحمته ، ما تقر به العيون وتنشرح له الصدور . ذلك أن دنيا الناس اليوم ، قد نجمت فيها الفتن ، واستغلظ بها عود الالحاد ، حتى غدت الحياة ـ بذلك ـ جحيما مشبوب النار مسعور الأوار ، بما مع الملاحدة ـ قادة ودعاة ـ من خطط محكمة وثقافات متجددة ، تحاول استغلال الأحداث فى مطاردة الاسلام ، دينًا وحضارة ولغة وثقافة ، وهى المعانى التى لا غنى عنها للانسان السوى ، الذى كرمه ربه وأسجد له ملائكته ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ، ثم سخره عبدا لرب السموات والأرض . عبودية ينتهى إليها أقصى ما تبلغه حرية الأحرار .

وقد آثرنا لهذه الكلمات أن يحملها إلى الناس كتاب عنوانه « الدين والتدين » ، وربما اقتضانا هذا العنوان حقه فى عدة أبواب تتغيا تفصيل إجمال أو توضيح إبهام ، على نحو لا يستغنى عنه مقتصد ولا يضيق به مجتهد ، والله تعالى هو المأمول أن يأخذ بنواصينا إلى الخير ، وأن يقيمنا على حاق الطريق ، بمنأى عن نزوات النفس . . ونزغات الشيطان . . فإنه نعم المولى ونعم النصير .

● **أحمد حسن الباقورى**

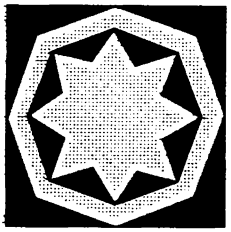

الدين والتدين

إن من الحق على من يكتب للناس كتابا ، ان يعينهم على الالمام بموضوعه إلماما يجعله بين المعالم فى « نفسه » بقدر ما يكون واضح الاعلام فى نظر من يقرأ له أو يأخذ عنه .

ولعلك تتطلع إلى الفرق بين كلمة « دين » ، وكلمة « تدين » فاعلم ـ رحمك الله ـ أن الفرق بين الكلمتين ، هو الفرق بين النظرية والتطبيق . وباستصحاب هذا المعنى تستطيع أن تعرف الدين بأنه : جملة ما أمر الله عباده به . . ونهاهم عنه . . وأرشدهم إليه . .

فإذا أخذ عباد الله أنفسهم بالوقوف عند حدود الله فيما أمر ونهى وأرشد ، فذلك هو التدين .

ونضرب لذلك مثلا « **الاسلام نظرا وعملا** » فهو من الجانب النظرى ، قول الله تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنو أطيعـوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم * فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ . فقد اشتملت هذه الآية على قضيتين ، أولاهما تستند إلى النص :

﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ .

وثانيتهما ، تستند إلى الاجتهاد :

﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ﴾ .

فأما القضية الأولى ؛ فقد اشتمل نصها على أصول الشريعة المحمدية المباركة ، وهذه الأصول هى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإجماع أولى الأمر من العلماء والرؤساء فى الجيش وفى المصالح العامة كالتجارة والصناعة والزراعة ورؤساء العمال .

وأما القضية الثانية ؛ فقد اشتمل نصها على بيان الحكم إذا لم يكن نص ، وذلك برد الأمر إلى الاجتهاد عن طريق القياس ، بعرض المسائل المتنازع فيها على القواعد

والأحكام العامة المعلومة من الكتاب والسنة ، فذلك خير من التنازع ، ثم هو أحسن تأويلا من الحيرة والأخذ بما لا سند له فى كتاب أو سنة .

وغير خفى على أهل العلم أن باب الاجتهاد مفتوح ، ما بقى للأمة الاسلامية كيان يقوم على حاكم ومحكوم ، وآية ذلك ما ذكره العلامة الشاطبى فى كتابه « الموافقات » من أن : الاجتهاد ، الذى هو بذل غاية الوسع فى تطبيق الاحكام الشرعية ، لا يمكن أن ينقطع حتى ينقطع أصل التكليف وذلك عند قيام الساعة .

ومادام الحديث قد أفضى بنا إلى الأمة الاسلامية شعوبا وحكومات ، فلابد من حديث عن الشورى ، إذ كانت أصلا من أصول الحكم فى الاسلام ، وكانت فى الوقت نفسه سلاما للحكام والمحكومين .

وما من شك فى أن خير ما يستند إليه المتحدث عن النظام الشورى فى الاسلام هو قول الله ـ سبحانه :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك * قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾

ففى هذه الآية يذكر الثقات من أهل العلم أن فى صوغ الآية الشريفة على طريقة السؤال والجواب ، تعليما من الله تعالى لعباده المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها بأن يعرضوها على ثقاتهم ونصحائهم ، وان كان هو سبحانه غنيا بعلمه وحكمته عن المشاورة فى كل حال . فكأنه سبحانه يقول : يا عبادى إننى فى تمام علمى وكمال قدرتى ، أشاور ملائكتى فى خلق آدم وأستمع لآرائهم وملاحظاتهم ، فأنتم أولى بذلك منى لأنكم محتاجون بعضكم إلى بعض ، ومتعاونون بعضكم مع بعض ، والواحد منكم قليل بنفسه ضعيف فى رأيه بمقدار ما هو كثير بإخوانه ، قوى بإجتماع آرائهم إلى رأيه .

وليس يختلف الناس فى ان منهاج الاصلاح قائم على النظر والتطبيق . فإذا قد كانت هذه الآية الكريمة قد وضعت النظام الشورى موضعا نظريا ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبين عن الله عز وجل ، وقد وضع الشورى موضعا تطبيقيا ، فذلك حيث يروى الثقات من أهل السير أن المشركين بعد هزيمتهم فى بدر أرادوا أن يثأروا لأنفسهم ، فاستجلبوا من أطاعهم من مشركة العرب ، وسار بهم أبو سفيان بن حرب ، حتى نزلوا ببطن الوادى قبلى أحد ، وقد كان رجال من المسلمين

لم يشهدوا موقعة بدر ، فندموا على ما فاتهم من السابقة ، وتمنوا لقاء العدو ليصنعوا صنيع إخوانهم يوم بدر ، فلما نزل أبو سفيان والمشركون بأصل أحد ، فرح المسلمون الذين لم يشهدوا بدرا وهم يقولون قد ساق الله إلينا أو منيتنا .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ليلة الجمعة رؤيا فأصبح . . فجاء نفر من أصحابه ، فقال لهم ـ صلوات الله عليه :

« رأيت البارحة فى منامى بقرا تذبح ورأيت فى سيفى ثلمة ، ورأيت أنى فى درع حصينة »

فلما أخبر النبى أصحابه برؤياه قالوا : فماذا أولت رؤياك يا رسول الله ؟ .

فقال : **« أولت البقر الذى رأيت جماعة من أصحابى يقتلون ، وأولت الثلمة فى سيفى رجلا من أهل بيتى يقتل ، وأولت الدرع الحصينة المدينة ، فامكثوا فيها واجعلوا الذرارى فى الحصون ، فان دخل القوم علينا قاتلناهم فى الأزقة ، ورماهم النساء والصبيان من فوق البيوت بالاحجار »**

فقال الذين لم يشاركوا فى معركة بدر : لقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله أن يستجيب لنا فقد ساقه سبحانه إلينا وقرب المسير .

وقال رجل من الأنصار : متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شعبنا .

وظل القوم على هذه الصورة يتمنون لقاء العدو .

فقال قائل يا رسول الله لا تحرمنا الجنة ، فوالذى نفسى بيده لأدخلنها بحب الله ورسوله ، وبأنى لا أفر عند الزحف . . فاخرج بنا إلى أعدائنا يا رسول الله حتى لا يروا أنا ضعفنا وجبنا عنهم .

ولم يجد صلوات الله عليه بدا من أن يدخل إلى بيته ويرتدى عدة حربه .

غير أن القوم ندموا إذ ظنوا أنهم استكرهوا رسول الله على الخروج .

ولما خرج عليهم قالوا : إن شئت أن تقعد يا رسول الله قعدنا معك .

فقال لهم النبى : ما ينبغى لنبى إذا لبس عدته أن يضعها حتى يقاتل . . وقد دعوتكم ألا تخرجوا من المدينة فأبيتم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم عدوكم ، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوه .

فهذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يشير عليه أصحابه بالرأى يرونه بمحض اجتهادهم ورغبتهم فى ثواب ربهم ، فيدع رأيه إلى رأى أصحابه ، وفى ذلك أبلغ الدليل على أن الشورى تدعو أولياء الأمر إلى الأخذ بها ، على أنها عزيمة من العزائم وليست رخصة من الرخص .

وإذ قد كان رسول الله قد التزم الشورى ، وأخذ برأى أصحابه فيها مخالفا رأيه ، فان غيره من سائر أولياء الأمر لا يسوغ لهم أن يخرجوا عن قضاء قضى به رسول الله . وهو القدوة الصالحة والمثل الأعلى لكل أولياء الأمر فى كل زمان ومكان .

وباستصحاب هذه المعانى ، لا تكاد تجد فرقا بين النظام الشورى فى الاسلام وبين النظام الديمقراطى فى حياتنا المعاصرة ، من حيث كان كل من النظامين ملزما ولى الأمر بالنزول على رأى ذوى الرأى فى الأمم والشعوب . وأنت إذا تتبعت حديث الشورى فى القرآن الكريم ، فانك واجد لهذا الحديث صورتين :

أولاهما : تتجلى فى ثناء الله تعالى على أهل الشورى ، ثناء جعلهم صفوة الله من عباده الصالحين . فذلك قوله ـ جل ثناؤه :

﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾

وثانية الصورتين : تتجلى فى أمر الله تعالى رسوله أن يأخذ بالشورى على ما يقول تعالى :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفرلهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾

ذلك هو قول الله تعالى فى الشورى ، وذلك هو عمل رسوله فى مجال التطبيق . وقد جاء أصحابه من بعده فتقيدوا بهذا النظام الشريف ، تقيدا لا تعرف الانسانية له مثيلا من قبل ، وآية ذلك بينة فى تاريخ وتصرف أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضوان الله عليهم .

وقد يعترض معترض بأن ثمة فرقا بين النظام الشورى

والنظام الديمقراطى ، ذلك أن الحاكم فى النظام الديمقراطى لا مندوحة له عن اعتزاله منصبه إذا لم يوافقه ذوو الرأى فى المجالس النيابية على رأيه . وليس الأمر على ذلك فى النظام الشورى بدليل الآية الكريمة التى أمرت النبى بالشورى ، ولم تأمره بالنزول على مقتضاها إلا اذا اقتنع هو اقتناعا دعاه إلى العزم على المضى فيما أشير به عليه .

وهذا الاعتراض غير وارد . بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتنع برأى اصحابه حتى ارتدى عدة حربه ، ولو أنه لم يقتنع ما فعل ، وهذا هو النظام الديمقراطى فهو والنظام الشورى سواء .

تلك هى منزلة الشورى فى كتاب الله وسنة رسوله وفى تصرف الخلفاء الراشدين ، وما انتكس نظام الجماعة الاسلامية ولا وهنت قوتهم وتفرقت كلمتهم إلا حين تنكروا لتراثهم وتنكبوا طريق أسلافهم ، فليحذر الذين يثنون على الاستبداد ويشجعون عمل المستبدين إذ كانوا بذلك يتجهمون أدب القرآن ويتهجمون على سلوك الخلفاء الراشدين فى مجتمع يحتكم إلى الاسلام ، على أنه حضارة تنظر إلى الدين فى آفاق الدنيا بقدر ما تنظر إلى الدنيا فى آفاق الدين .

ذلك ما يتعلق بالاسلام نظرا ومنهاجا فى مبلغ ما نعلم .

وأما ما يتعلق به ـ سلوكا وتطبيقا ـ فخلاصته أن الاسلام هو الانقياد لكل ما جاء به محمد رسول الله . فكل من انقاد إلى ذلك ولو ظاهرا ، فهو مسلم . وإذن فالدين ، منهج نظرى ، والتدين تطبيق عملى لهذا المنهاج . وبذلك يتضح الفرق بين المراد من الدين والمراد من التدين .

وإذ قد وضح لك المعنى فى اسم الكتاب ، فقد بقى لك علينا أن نصحبك إلى ما انتظمه هذا الكتاب من عناوين تحتاج إلى بيان لا ينبغى الضيق به ولا الاعراض عنه ، فنقول وبالله نتأيد ، ومنه نستمد العون ، فانه حسبنا ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير .

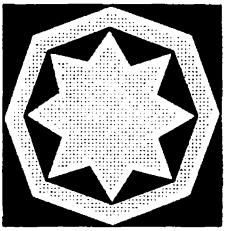

الدين فى تكوين الانسان فطرة

ان أول ما يقتضى حقه من البيان فى هذا العنوان الكلمتان : الدين والفطرة .

فأما الدين ، فجملة القول فيه : أن الكلمات تتألف من : الدال والياء والنون ، تتضمن خضوع مقهور لقاهر ، وضعيف لقوى بدافع من رجاء لمنفعة أو اتقاء لمضرة . ومن هنا يكون الدين مرتبطا أشد الارتباط بغريزة من أقوى غرائز الانسان ، وهى غريزة حب الخضوع لكل قادر على جلب نفع أو دفع ضُر .

ومن ذلك قالت العرب : فلان دان فلانًا يدينه ، يعنون انه قهره وأخضعه لسلطانه .

وعليه جاء قول الله سبحانه :

﴿ فلـولا ان كنتم غير مـدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ .

يعنى جل ثناؤه : إن كنتم غير مربوبين مقهورين لرب قوى قاهر ، فأرجعوا روح المحتضر اذا بلغت الحلقوم عند النزع ، وأنتم تشاهدون ما هو فيه من كرب شديد . فإذا كنتم عاجزين عن ذلك مع حرصكم عليه فأنتم مدينون لرب العالمين الذى خلقكم وجعل لكم الأسماع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون .

ومن الكلمات التى تشير الى الخضوع والانقهار كلمة « الدَيْن » ـ بفتح الدال ـ فإن المدين يجد من نفسه بعض المذلة لدائنه كما يدل على ذلك ، الحديث : « الدَّيْن هم بالليل وذل بالنهار » .

وليس يشق على البصراء بفقه اللغة العربية أن يتمثلوا معنى الخضوع فى الكلمات ذات الأحرف الأصول : الدال والياء والنون . . كما فى قوله تعالى فى سورة الفاتحة :

﴿ ملك يوم الدين ﴾ .

وقوله فى سورة النور :

﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ .

فإن الدين فى الآيتين يعنى الجزاء ، والجزاء فيه بلا ريب معنى الخضوع ، فإن المجازى على الأعمال قادر قاهر . والواقع تحت سلطان القاهر عاجز مقهور . ولذلك أطلقت اللغة على العبد كلمة « المدين » ، كما أطلقت على الأمة كلمة « المدينة » إذ كان كل من العبد والأمة مقهورا خاضعا تحت سلطان السيد .

وربما ذهب ذاهب الى أن الكلمة « المدينة » ـ فى مقابلة « البادية » ـ مشعرة بأن سكانها مقهورون بحكم اللوائح والقوانين وسلطان الحاكم ، بخلاف سكان البوادى فإنهم أكثر تمتعا بحريتهم وأشد بعدا عن الاخضاع والارغام .

وباستصحاب هذا النظر يتضح معنى الحديث الذى يكره للمؤمن أن يقترض أموالا الى أجل . إذ كان فى هذا الاقتراض ما يقض مضجعه فى الليل ويشعره المذلة فى النهار ، على ما يشير الى ذلك الحديث الذى أخرجه الامام مسلم عن أبى قتادة رضى الله عنه ، فقد كان له على غريم دين ، فكان كل ما طلبه توارى عنه ، حتى اذا وجده واقتضاه دينه . قال : إنى معسر . فاستحلفه أبو قتادة على أنه صادق فى دعوى الاعسار . فلما حلف له ، أعفاه من قضاء الدين قائلا له : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سَرَّه أن ينجيه الله تعالى من كرب

يوم القيامة ، فلينفس[1] عن معسر أو يضع عنه دينه » .

هذا . وأما الفطرة ، فإنها تشير الى الفطر الذى هو الشق عن الشيء بإظهاره للحس ، تقول العرب : فطر الرجل الشيء فطرًا فانفطر ، تعنى أنه شق عنه وأظهره للحس . وكذلك تقول فطر ناب البعير ، تعنى أنه شق اللحم وطلع . وعلى ذلك جاء القرآن الكريم :

﴿ الحمد لله فاطر السماوات والأرض ﴾

يعنى جل ثناؤه خالق السموات والأرض ابتداء على غير مثال سبق . وليس يخفى أن من أعيان العرب ، من كان يخفى عليه معنى الكلمة من كلمات اللغة ، حتى يدله على معناها عربى لعله من سواد الأعراب . فقد خفى على عبد الله بن عباس ترجمان القرآن معنى الفطر فى الآية الشريفة ، حتى اختصم اليه رجلان فى بئر كل منهما يدعيها لنفسه ، فقال أحدهما : أنا فطرت البئر ، فأنا أحق بها . فأدرك ابن عباس معنى كلمة « فاطر » ، وأنها تشير الى ايجاد ما لم يكن موجودًا من قبل .

ومهما اختلف أهل اللغة حول كلمة « الفطرة » ، فإنها فى القرآن الكريم هى الحنيفية السَمْحَة ، التى هى ملة

---

(١) التنفيس : تاخير مطالبة الغريم حتى يجد قضاء لدينه ، وخير من ذلك ان ينزل لخ عن الدين . فذلك قول الله : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وان تصدقوا خير لكم . . الآية ﴾ .

أبى الأنبياء ابراهيم ، وهى الاسلام الذى إبتعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين . فكذلك أمر الله محمدًا عبده ورسوله أن يقوِّم وجهه لهذا الدين ، غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالاً على ما يقول ـ تعالى :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾ .

وليس يرتاب الذين يعلمون فى أن الايمان بالله تعالى هو أصل الأصول فى الدين ، ثم هو موصول بالفطرة التى فطر الله الناس عليها ، على ما تقرر ذلك الآية الشريفة من سورة الأعراف :

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ [1] .

---

(١) بعض اهل العلم يقدر محذوفا يتضح به المعنى . وهذا المحذوف هو كلمة « كراهة » فيكون معنى هذه الآية : اننا اخذناكم من ظهور آبائكم ثم اشهدناكم على انفسكم ، كراهة ان تحتجوا بالغفلة او بتقليد آبائكم .

وفريق آخر من اهل العلم من يقدر المحذوف كلمة « لئلا » تقولوا إن كنا عن هذا غافلين او تقولوا إنما اشرك آباؤنا . . الآية .

ففى هذه الآية يذكر الله ـ تعالى ـ لكل من يعقل الخطاب ، أنه استخرج أولاد آدم ـ ذكورا وإناثًا ـ نطفًا من ظهور الآباء إلى أرحام الأمهات ، ثم جعل النطفة علقة ، ثم جعل العلقة مضغة ، ثم جعل المضغة عظامًا ، ثم كسا العظام لحمًا ثم جعله إنسانا سويًا وخلقًا كاملا ، قادرًا على المقارنة والموازنة وإستنتاج النتائج من المقدمات ، فإذا نظر فى الكون البديع نظرًا صحيحًا ، ومزق عن نفسه حُجُب التقليد ، فإنه مدرك ـ بلا ريب ـ أن ثمة صانعًا مبدعًا وراء هذه الصنعة البديعة ، وأن ذلك الصانع المبدع ، لا تنطبق عليه نواميس المصنوعات ، فهو الله الأحد الصمد ، لا يغرب عن علمه شىء ولا يعجز عن قدرته شىء ، جل ثناؤه وتقدست أسماؤه .

فبخلق الولد على هذه الصورة ، يكون الايمان بالله ، امرًا مركوزًا فى تكوين الانسان ، بحيث لو نظر فى ملكوت السماوات والأرض ، نظرًا منزهًا عن الهوى والتقليد الأعمى ، لم يسعه إلا أن يؤمن بالله رب العالمين ، الذى ليس كمثله شىء فى صفة من صفاته ولا فى فعل من أفعاله سبحانه وتعالى عما يشركون .

ولن تقول غير مقول ، إذا فسرت الاشهاد فى الآية الشريفة بهذه الصورة التى خلق الله عليها الانسان .

ذلك أن الاشهاد له صورتان : صورة قولية يعترف الانسان فيها بأمر رآه أو سمعه ، فإذا طلب اليه أن يشهد على ذلك شهد . وصورة أخرى ، لا تكون الشهادة فيها بلسان المقال ولكنها تكون بلسان الحال كما يقول البليغ لمنعم عليه : ان عيالى فى نضارة ألوانهم ونظافة ثيابهم تشهد بنعمتك علىّ واحسانك إلى . وعلى ذلك جاء قول خطيب العرب : أيها الناس ، سلوا الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وأينع ثمارك فإن لم تجبكم الأرض على طريق الحوار ، فإنها تجيبكم على طريق الاعتبار ، فذلك هو معنى قولهم : « لسان الحال أبلغ من لسان المقال » .

وما أكثر ما تجد لدلالة الحال صورًا شريفة فى أدب العرب والمأثور من رفيع بيانهم ، وفى طليعة ذلك الأدب الشريف ، قول الله جل ثناؤه :

﴿ ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعًا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾

وليس يخفى عليك أنه ليس هناك قول ولا مقول له ، ولكن الأمر موكول الى الذوق العربى فيما ألف العرب من تعبير . والمراد من القول ، سرعة التكوين فى مثل اللحظة التى يقول فيها القائل : كن ، فلا يلبث أن يكون ، فذلك هو الميثاق الذى أخذه الله على عباده ، فجعل لهم قلوبا يفقهون بها وآذانا يسمعون بها ، وأعينا يبصرون بها ، فإن هم استعملوها على ما ينبغى لها ، فليس يسعهم الا الايمان بأن ثَمَّ خالقًا لا يغرب عن علمه شىء ، ولا يتأبى على قدرته شىء . وإن هو استعمل هذه الحواس فى إطار من الهوى والتقليد الأعمى ، فقد جحد نعمة الله عليه ، وحَنِثَ فى الميثاق الذى لا يجوز الحنث فيه .

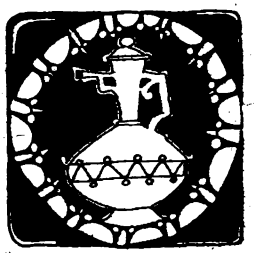

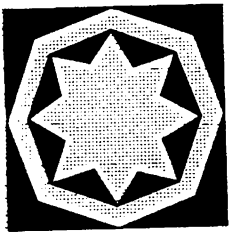

وقفة لابد منها

أسلفنا لك ـ أعزك الله ـ أن الانسان اذا استخدم حواسه فى النظر فى ملكوت السمارات والأرض فإنه لابد أن يوازن ويقارن ويستنتج ، فإذا فعل منزها عن الهوى والغرض ، فلا جرم أنه مدرك بفكره أنه لابد لهذا الكون البديع من مبدع أبدعه على صورة لايمكن أن يتصورها عاقل وليدة مصادفة أو خبطة عشواء فذلك هو الايمان عن طريق الفكر والنظر فى ملكوت السماوات والأرض .

بيد أن هنالك من العلماء الموثوقين من كان يقرر أن كل ما ورد فى كتاب الله من الآيات المسوقة سوق الدليل على وجود الله ، ان هو إلا تنبيه للنفس من غفلتها أو ايقاظ لها

من غفوتها ، وإلا فإنه سبحانه قائم فى النفس السوية والقلب الذكى ، مقاما لايحتاج معه الى دليل يدل عليه . وغاية ما كان من ذلك لايعدو أن يكون تنبيها إلى التلقى عن الوجدان ما لا يمكن أن يصاغ صوغ الدليل والبرهان . فمثل الوجود الإلهى فى الفطرة السوية ، مثل احساس الجائع بالجوع والظامىء بالظمأ . حتى إنك لو سألت جائعا أن يقيم الدليل على أنه جائع لكنت قد سألته عما لاسبيل له إلى اجابتك اليه . ذلك أنه انما يقول لك : اننى جائع . فإذا قلت له ما الدليل على أنك جائع ؟ . فإنه لا يزيدك على ما قال لك شيئا ، ولكنه يعود الى تكرار ما قد قال « أنا جائع » أنا أحس الجوع . . أو أنا ظمآن . . أنا أحس أننى ظمآن ، ثم ليس وراء ذلك بيان يستطيع أن يبذله لك لتعلم أنه جائع أو ظمآن .

وإلى هذا المذهب الشريف فى النظر الى الوجود الالهى ، ذهب الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده حيث قال : « ليس يرتاب أهل النظر الفاقه فى أن الوجود الإلهى ، قائم فى الذهن السليم من الآفات ، على التقاء الفكر مع الوجدان التقاء نشأت عنه حقيقة الوجود الإلهى وجودا لا يخالطه ريب بل لايرقى اليه غبار المعارك بين نظر المؤمنين وسفه الملحدين .

وما كان الوجدان ليناقض العقل فى سيره داخل حدود مملكته حينما يكون القلب سليما ، ويكون ما استضاء به من نبراس الدين صحيحا . فإياك أن تذهب مذهب السذج اعتقادا أن ثمة فرقا فى الوجهة بين الفكر والوجدان مهما يكن الفكر قائما فى العقل ، والوجدان قائما فى القلب . إذ كان العقلاء يجمعون على المشاهدات بالحس الباطن ، إنما هى من مبادىء البرهان العقلى . كوجدان الانسان أنه حى موجود ، وأنه مسرور أو محزون وأنه راض أو ساخط ، وأنه متلذذ أو متألم . ذلك أن التخالف بين العقل والوجدان مستحيل أن يقع إلا عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس .

وقد منح الله عباده العقل للنظر فى الغايات والوسائل والمسببات والأسباب والمركبات والبسائط ، كما منحه الوجدان والادراك لادراك ما يحدث فى النفس من لذة وألم وطمأنينة وهلع واذعان[1] وشماس[2] ، وما الى ذلك مما يذوقه الانسان ، ولا يستطيع احصاءه بيان .

---

(١) الاذعان : الانقياد ، تقول اذعن بالحق اقر به .

(٢) الشماس : النفور تقول شمس فلان تابى واستعصى .

فالعقل والوجدان هما عينان للنفس تنظر بهما : عين تقع على القريب ، وعين تمتد الى البعيد ، والنفس فى حاجة اليهما كلتيهما ، إذ كانت لاتنتفع بإحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالاخرى . والعلم الصحيح مقوم للوجدان ، والوجدان السليم مسدد سواعد العلم . والدين الكامل علم وذوق ، عقل وقلب ، برهان واذعان ، فكر ووجدان ، فلو اقتصر الدين على أحد الأمرين لسقطت احدى قائمتيه ، وهيهات أن يقوم على الأخرى وحدها ! وهيهات أن يتخالف العقل والوجدان ، لا أن يكون الانسان الواحد انسانين ، والوجود الفرد وجودين ، وهذا فى باب الاستحالة بمكان مكين .

وقد يدرك عقلك الضرر فى عمل ، ولكنك تأتيه طوعا لوجدانك ، وربما استيقنت المنفعة فى أمر ، ثم أعرضت عنه استجابة لدافع من سريرتك ، فتقول ان هذا يدل على تخالف العقل والوجدان ولكن هذه حجة من لايعرف نفسه ولايعرف غيره ، فعليك أن ترجع الى نفسك ، فتتحقق من أحد الأمرين ، فإما أن يقينك ليس بيقين ، وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك . فأنت تظنها علما وما هى بالعلم ، وإما أن وجدانك وهم تمكن منك وعادة رسخت فى مكان القوة فيك ، ليس بالوجدان الصحيح ، وانما هو

عادة ورثتها عمن حولك ، ثم ظننتها شعورا منبعه الغريزة ، وما هى من ذلك فى قليل ولا كثير .

ان مما لا يناله الشك أنه لابد من أن ينتهى العالم الى تآخى العلم والدين على طريقة القرآن العظيم ، وان مما لا يناله الشك أنه لابد من أن يأخذ الفلاسفة وأهل العلم بمعنى الحديث النبوى الشريف : « **تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله** » . وان مما لا يناله الشك أيضا أنه ـ عند ذلك ـ يكون الله تبارك وتعالى قد أتم نوره الذى وعد به ولو كره الذين يرون الدليل ، فيصدون عنه ولا ينظرون فيه ، أو ينظرون ويعرفون الحق ، ثم لا يخضعون له ؛ ولا ينزلون على حكمه مضيا على سنة الهوى ونزولا على منطق الاستكبار فى الأرض ، ولكن الله بالغ أمره وان كان أكثر الناس لايعلمون[1] .

كذلك قرر امام الأئمة الأستاذ الامام محمد عبده طيب الله ثراه ونضر وجهه فى جنة عرضها السماوات والأرض مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وكذلك تتجلى فى أثناء قوله هذا قضية خليقة بالتدبر وانعام النظر على قدر ما يستعين

---

(١) بتصرف عن شروح العقائد العضدية .

الناس بها فى مجال الدعوة الى الايمان بالله خالق السماوات والأرض ومدبر الأمر على أحسن مايفكر المفكرون وينظر الناظرون . وهذه القضية ـ على جلالتها ـ هى أن العقل وحده غير كاف فى مجال الدعوة الى الايمان بالله ، وأنه لابد من أن ينضم اليه الوجدان الذى لا سبيل الى مغالطته بالأقيسة المنطقية التى تقوم أكثر ماتقوم على المغالبة ، فتتمهد بين يديها السبل الى الانكار والجحود ، وهذه العقيدة الوجدانية الفكرية فى الاله هى العقيدة القرآنية التى أقام بها الاسلام صرح الايمان ، وزلزل بها قواعد الشرك والوثنية والالحاد .

ومن هنا يرى الذين يتدبرون كتاب الله أنه لم يكد يقيم دليلا على وجود الله من حيث كان وجوده سبحانه من الوجدانات الضرورية التى يجدها الانسان فى نفسه دون حاجة الى دليل ينصرها أو برهان يؤيدها ، فمحاولة اقامة الدليل على وجوده سبحانه لاتعدو أن تكون نوعا من العبث الذى ينبغى التنزه عنه عند أهل الجد فى هذا الباب الجليل من أبواب الحياة الاجتماعية ، وهو باب العقائد والديانات .

ولقد يعرف أهل العلم أن العقلانيين من علماء الإسلام يقررون ـ فيما يشبه يقين العقائد ووضوح البديهيات ـ

أن القضايا التى تساق مساق الأدلة المنطقية اليونانية على وجود الخالق ـ ما كان ينبغى أن تسمى دليلا أو برهانا ، وانما هى ايقاظ للغافل وتنبيه للغافل ، وفرق بين التنبيه والتدليل .

ولست ترتاب فى أنك سوف تزداد بهذا الذى نقرره لك ايمانا وأنت تتلو سورة الطور وفيها قول الله جل ثناؤه :

﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن[1] ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربص[2] به ريب[3] المنون[4] * قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين * أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لايوقنون ﴾

فإنك لاتجد فى هذه الآيات إلا لفتا هادئا رقيقا بعيدا عن الاقحام والاعنات ، يجمع الله تعالى لك به بين البرهان العقلى والحس الوجدانى بمنأى عن الأقيسة المنطقية اليونانية .

---

(١) الكاهن : الذى يدعى علم الغيب .
(٢) نتربص : ننتظر .
(٣) الريب : الشك .
(٤) المنون : الموت .

وعلى هذا النحو نفسه تجد الآيات من سورة الواقعة :

﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون * أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون * أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم[1] تفكهون [2] * انا لمغرمون[3] * بل نحن محرومون * أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجا [4] فلولا تشكرون * أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين[5] * فسبح باسم ربك العظيم ﴾

---

(١) فظلتم : فصرتم .

(٢) تفكهون : التنقل من حديث إلى حديث .

(٣) مغرمون : خسر .

(٤) اجاجا : الماء غير الصالح للشرب .

(٥) مقوين : المسافرون .

فهذه الآيات من سورة الواقعة وتلكم الآيات من سورة الطور مع سائر الآيات التى تجرى مجراها ـ لا يراها المتدبرون لكتاب الله مسوقة فى النظم الشريف مساق الدليل المنطقى اليونانى المركب من مقدمات ألفت تأليفا مخصوصا تنتج عنه نتيجة يبلغ بها الناظر منطقة الايمان بوجود الله ، ولكنك تراها مسوقة مساق اللفت الهادىء والتنبيه الرفيق الذى لا عنت فيه ولا إحراج . وتلك النتيجة هى أن الله تعالى حق لا يشوب وجوده ريب ، ولا يرقى إليه غبار المعارك بين الملاحدة والمؤمنين .

وعلى هذا النحو من الاستدلال الذى يمتزج فيه نظر العقل بحس الوجدان ، لا ينكر الخلقاء بصفة الانسانية وجود الخالق ، ولا أنعمه على الخلق ، كما تقرر ذلك الآية من سورة العنكبوت :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾

وكذلك الآيات من سورة ابراهيم :

الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا ---

لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار .

فإنك فى هذه الآيات وأمثالها لامندوحة لك عن الايمان بأن الانسان اذا خلا هو وفطرته دون عناد أو نزوة أو شهوة ـ فلا جرم ـ أنه مؤمن بوجود الله ملء نفسه ومطاف حسه . ثم هو مؤمن بأن أنعم الله تعالى طائفة به على صورة تستمسك بها حياته وحياة ما سخره الله له من نبات وحيوان .

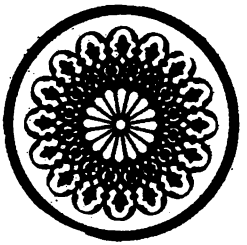

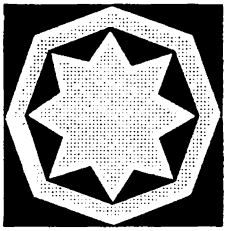

الدين فى فطرة الانسان نعمة

خير ما نبدأ به حديث هذا الفصل قول الله جل ثناؤه :

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾

ففى هذه الآية يذكر الله عباده بأن جميع ما بهم من نعمة الصحة فى الجسم ، والسعة فى الرزق ، إنما هو من عند الله ومن جهته ، ثم أضاف إلى هذه النعم نعمة أخرى هى : أن فطرتهم تسلمهم إلى اليأس إذا مسهم ضر ونزلت بهم محنة ، ولكنهم يتضرعون إليه ـ سبحانه ـ فى كشف ذلك عنهم .

وليس ينبغى لك أن تغفل عن وجه النعمة فى لياذك بربك تدعوه ضارعاً إليه أن يرفع عنك البلاء ، ويستبدل به النعماء ، تقربها عينك وينشرح لها صدرك . ذلك أن الاستسلام لليأس من كشف الضر وزوال المحنة ، بلاء لا يعدله بلاء ، فإذا دعا المرء ربه مؤمناً به متوكلاً عليه ، فلا يلبث الأمل فى رحمة الله أن يغمر بالسكينة نفسه .

وغير ذى حاجة إلى مزيد بيان أن الذين يتجهمون هذه الحقيقة ، إنما يخضعون للعادة الحاكمة والهوى الغالب ، فيمضون على سنة أمثالهم من أدعياء العلم ، الذين يزعمون لأنفسهم وللناس أن الدين أفيون الشعوب ، ولو أن هؤلاء الزاعمين أنصفوا أنفسهم لآثروا فكراً غير هذا الفكر وتعبيرا أكرم من هذا التعبير . ولن يقول هؤلاء الرافضون للدين إن لجوء الطفل إلى أمه أو أبيه إبان الشدة مخدر أو أفيون ، فإذا عجزوا عن وصف الطفل هذا الوصف الكذوب ، فإنهم أعجز عن وصف المتدين بهذه الصفة المرذولة ، إذ كان الله تبارك وتعالى أرحم بعباده من الأم بوليدها ومن الأب بولده ، وصدق الحديث الشريف الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لقد جعل الله الرحمة مئة جزء فأمسك عنده تسعةً وتسعين وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » .

وليس يشق على الذين يتمثلون وجه النعمة بالدين فى الفطرة الانسانية ، أن يلتمسوه فى عياذ المؤمن بالله إذا مسه ضر فإنه عن طريق الفطرة يتوجه إلى الله لكشف الضر عنه فمثله كمثل العزيف الذى يكاد يستسلم للموت بين الأمواج ، حتى يلوح لعينيه ما يبعث فى نفسه الأمل فى الحياة ، فإذا هو مُصرٌّ على أن يحيا ، وإذا عواصف اليأس بين جنبيه تتراجع لتفسح مكانا رحيبا للأمل فى الحياة ، وفيما وراء الحياة من سعادة ومتاع ، وإلى هذا المعنى الكريم يشير قول الله تعالى :

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾

ففى هذه الآية ، إشارة إلى أن لياذ المؤمن بربه وتضرعه إليه لكشف الضر عنه آية اكتمال عقله وسلامة فطرته . فالدين فى فطرة الانسان مذهبة لليأس ، مجلبة

للأمل . وليس للنعمة معنى أسمى من هذا المعنى .

وكما أن هذه الصورة وجه لنعمة الله على عباده بالدين ، كذلك الوقوف عند حدود الله فى مجال التصرف والسلوك ، يشتمل على نعم لا تحصى . فاحتفاظ المؤمن بصحة جسده ، وحياة روحه ، وكمال مروءته ، وعلو منزلته بين الناس ، كل ذلك من أنعم الله وكل ذلك أثر من آثار التدين .

وعلى هذا النحو تجىء أوامر الله تعالى ونواهيه وإرشاداته ، وفى كل منها ما يعين ذا الدين على الحياة الآمنة المطمئنة ، لا ينكر هذه الحقائق من يؤثرون الحق ويرون سلطانه فوق كل سلطان .

وإن من أجل ثمرات الدين ، أنه يأخذ بيد صاحبه إلى أشرف منازل المروءة وأكرم مكارم الأخلاق ، فإذا المنازل الشريفة والأخلاق الكريمة ، وسائلٌ إلى الله تعالى فى رفع الضر وتفريج الكرب والنجاة من براثن شدة أليمة لا يقدر على كشف البلاء فيها إلا الله رب العالمين . وآية هذه القضية تتجلى فى حديث نبوى شريف اشتمل على قصة خلاصتها :

أن ثلاثة مسافرين جمع الطريق بينهم . وآنس أدب الاسلامُ بعضَهم ببعض . والرُّفقة فى السفر ، أُنسٌ من

وحشة وأمنٌ من مخافة . وقد مضى أولئك الثلاثة المؤمنون فى طريقهم إلى الغاية التى يرجونها ، حتى أفضى بهم المسير إلى بادية بلا معالم ، فجعلوا يسيرون فيها تخفضهم الأودية وترفعهم التلال . وفيما هم على ذلك - والحديثُ مطيتهُم الذلول - بدأت العواصف تزأر والسُّحُبُ تتراكم والرعد يكاد يُصِمُّ الآذان والبرق يكاد يخطف الأبصار فإذا هم نُهبى[1] بردٍ قارس وحيارى ظلام دامس لا يدرون كيف يفعلون ولا أين يذهبون .

وفجأة لاح لهم من خلال البرق جبل ، فولوا وجوههم شطره ، فلما بلغوه وجدوا فى أحضانه غاراً ، فألقوا بأنفسهم فى جوفه إلقاء من لا يبالى ضوارى السباع ولا خطر الهوام والحشرات ، حتى إذا اطمأن بهم المجلس ، وذهب عنهم الرَّوْع ، رجفت بهم الأرض رجفة زلت بها عن الجبل صخرة سدت عيهم فم الغار ، ولم يجدوا وسيلة إلى النجاة مما هم فيه إلا أن يفزعوا إلى الله يدعونه بكل ما فى صدورهم من إيمان ، ويتوسلون إليه بكل ما قدموا فى حياتهم من عمل ، حتى كشف الله البلاء عنهم وكتب السلامة لهم .

---

(١) نهبى مثل وزن حُبلى : النهب والانتهاب - فكان شدة البرد تكاد تهلكهم فلا يبقى لهم الركما ينتهب القوى مال الضعيف فلا يبقى له شيئا .

ففى حال هؤلاء الثلاثة جاء حديث من أعطاه الله جوامع الكلم محمد صلى الله عليه وسلم حيث ذكر صلوات الله عليه :

« أن ثلاثة نفر من أهل الايمان بالله كانوا قد انطلقوا فى أرض الله حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوا فيه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم فم الغار » . فقال بعضهم لبعض : أنه لا ينجيكم من هذه الضخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم . فقال أحدهم : إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت أرعى عليهما ولا أقدم لبنا لأحد قبلَهما وإنه نأى بى طلب المرعى يوما ، فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما شرابهما فوجدتهما قد ناما ، فكرهت أن أسقى قبلهما أحداً ، وكرهت أن أوقظهما ، وأطفالى يتصايحون عند قدمى من شدة الجوع ، والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما أبواى حتى برق الفجر . اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك إبتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة . فانفرجت شيئا .

وقال الثانى : اللهم إنه كانت لى ابنة عم هى أحب الناس إلى ، فراودتها عن نفسها . فامتنعت حتى ألم بها الجدب ذات سنة ، فجاءتنى فأعطيتها مئـةً وعشرين

ديناراً على أن تخلِّى بينى وبين نفسها ، ففعلت . ثم راحت تخوفنى عذاب الله . وتذكرنى بأنه لا يحل لى ذلك منها إلا بحق العقد . فتركتها لذلك ، وتركت لها الدنانير مع ذلك . اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك إبتغاء ثوابك وخشية عقابك ففرج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة شيئا لا يستطيعون الخروج منه .

وقال الثالث : اللهم إنى كنتُ إستأجرتُ أجراء فأعطيتهُم أجرهم غير رجلٍ واحد منهم ترك أجره وذهب ، فثمرته له حتى كثرت منه الأموال . فجاءنى بعد حين . فقال : ياعبد الله أعطنى أجرى . فقلت : كل ما ترى من البقر والغنم والابل ، أجرك ، اذهب فخذه . فقال يـاعبـد الله لا تستهـزىء بى . فقلت : إنى والله لا أستهزىء بك ، فاذهب فخذه كله . اللهم إن كنت تعلم أنى فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة فخرج الثلاثة يمشون .

وهكذا تتجلى نعمة الله على الانسان بالدين . فيزداد طلاب الحق إيماناً بأن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين . كما ينجلى لهم أن خير الوسائل إلى ابتغاء مرضاة الله العمل الصالح ، يبر المرء به أباه وأمه ومواطنيه من أهل الايمان .

وليس يخفى عليك أن التدين ـ كما ينتفع به المتدين فى نفسه ـ ينتفع به كذلك جميع مواطنيه ، وبخاصة أهل الديانات الكتابية .

ذلك أن أهل كل ملة يحترمون **أموراً خمسة لا تقومُ** حياةُ متدين إلا بها بحيث لو فقدت لما جرت مصالح الدنيا على استقامة ، بل تجرى على فساد وتهارُج وفوت حياة **وتلك الأمور الخمسة هى :**

إحترام النفس ، فالقتل حرام فى كل ملة ما لم يكن قصاصا أو دفعاً للفساد فى الأرض ، وذلك موكول إلى نظر ولى الأمر الذى يملك وحده حق المنع والاباحة وصيانة الأمة بما تشرعه اللوائح والقوانين المنوطة بأهل الحل والعقد فى الهيئات الثلاث : التشريعية والقضائية والتنفيذية .

وكذلك الأمرُ فى النظر إلى المال . فالاعتداء على الملكية حرام فى كل ملة إلا فى حدود ما يقرره أهلُ الحل والعقد كذلك .

وعلى هذا النحو يقوم النظر إلى احترام النسب ، فالفاحشة حرام فى كل ملة . وعلى هذا السنن تمضى حرمة العقل ، فتعطيله بمثلِ المسكر أو المخدر أو المفتر حرام فى كل ملة .

وكذلك الأمر فى الدين ، لا يسوغ لمتدين أن يمتهن دينه أو يغض من قدره أو يعلن الضيق والخروج عليه ، على ما يقرر ذلك الامام الشاطبى فى كتابه الموافقات مؤيدا من مؤلف كتاب التحرير فى تفصيل لا يضيق به عالم ، ولا يستغنى عنه متعلم والله ولى التوفيق .

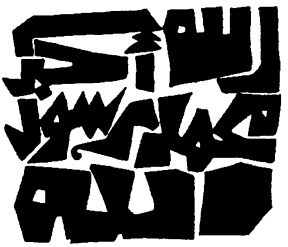

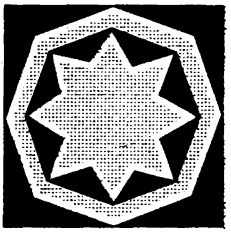

الدين على لسان الأنبياء واحد

إن لكل دعوى دليلاً تستند فى قيامها إليه . ودليل الدعوى فى هذا العنوان قول الله جل ثناؤه :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدينَ ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾

فقد تضمنت هذه الآية أن الدين الذى اختاره الله لعباده وأمر الرسل بتبليغه إلى العالمين ، إنما هو الاسلام الذى جعل الله كتابه المنزلَ على محمد خاتماً للكتب المنزلةِ على الرسل ، وجعل رسوله محمداً خاتماً للأنبياء والمرسلين .

وشاهد أن الاسلام دين جميع الأنبياء من لدن نوح حتى محمد ، ماثل على غاية الوضوح فى آيات الكتاب الكريم :

فأما نوح فشاهده قول الله :

﴿ واتلُ عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كَبُرَ[1] عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمةً ثم اقضوا[2] إلىّ ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إنْ أجرى إلا على الله وأمرتُ أن أكون من المسلمين ﴾

وأما إبراهيم فشاهده قول الله :

ومن يرغبُ عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه[3] ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال لهُ ربه أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين

---

(١) ثقل عليكم .

(٢) توجهوا إلى بما تقدرون عليه من الشرور دون تاخير فإن شيئا من ذلك لا يضيرنى فى كثير أو قليل .

ففى هذه الآية إخبار من الله تعالى بان نوحا قال لقومه إن كان قد ثقل عليكم قيامى فيكم مذكرا بما أصاب أمثالكم من المشركين حتى حملكم ذلك على ان تعتزموا قتلى وطردى فإنكم عاجزون عن أن تنالونى بسوء لأننى متوكل على الله الذى يمنعنى منكم ويقينى شركم وقد ابلغتكم رسالة ربى فإن اعرضتم عنها فما سالتكم اجرا يثقل عليكم وحسبى أننى من المسلمين الموحدين .

(٣) امتهن نفسه واستخف بها .

وأما موسى فشاهده قول الله :

﴿ وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين . ونجِّنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾

وأما عيسى فشاهده قول الله

فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهَدْ بأنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

هذا . ولعلك تسأل بعد هذا الذى ذكرنا لك عن الاسلام الذى شرعه الله لأمة محمد كما شرعه لأمم سائر المرسلين ، فنقول وبالله نتأيد .

إن الاسلام الذى وصى الله به نوحا وابراهيم وموسى وعيسى والذى جاء به محمد مصدقا لما بين يدى كتابه من كتابه ، ومصدقا لمن سبقه من الرسل . إنما هو إسلام الانسان نفسه إلى الله مؤمنا به وحده لا شريك له واقفا عند حدود الله فيما أمر به ونهى عنه وأرشد إليه ثم مؤمنا

بأن ثمة يوما يرجِعُ الناس فيه إلى الله فيحاسبهم بما عملوا ويجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقد بيّن رسول الله معنى الاسلام بقوله لسائل سأله ، الاسلام : أن تشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا .

وقد أنبأنا كتاب الله ـ صادقا مصدوقا ـ بأن الكتب السماوية التى سبقت البعثة المحمدية قد وصفت محمدا وصفا شافيا وبينت رسالته بيانا كافيا لاتخفى معه معالم الطريق الى الحق ، فذلك قوله تعالى على لسان موسى وصفوة قومه :

﴿ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا[1] إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر

---

(١) تبنا إليك

ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم[1] والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه[2] ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾

وخلاصة القول فى الدين الذى أوصى الله به جميع أنبيائه ورسله ما ذكره أبو بكر بن العربى من قوله :

« إن نوحا أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، كما أن آدم أول نبى[3] ، لأن آدم لم يكن معه إلا نبوه ، فلم تفرض له الفرائض ، وإنما كانت نبوته تنبيها إلى بعض الأمور وانتصارا على ضروريات المعاش ، وأخذا بوظائف الحياة والبقاء . وقد استقر المدى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات ، ووظف عليه الواجبات ، وأوضح له الآداب فى الديانات ، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ واحدا بعد واحد ، وشريعة إثر شريعة ، حتى ختمها الله

---

(١) التشديد الذى كان على بنى اسرائيل فى دينهم .

(٢) وقروه وعظموه وحموه من الناس .

(٣) التعب والمشقة .

بملة محمد ، فكان المعنى : إنا أوصيناك يامحمد بما أوصينا به نوحا : دينا واحدا فى الأصول التى لا خلاف عليها وهى ، التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والزلفى إلى الله بما يرد القلوب والجوارح إليه ، وكذلك أوصينا بالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم الكفر والقتل والاذاية للخلق كيفما تصرفت ، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات . فهذا كله مشروع دينا واحدا وملة متحدة لم تختلف على ألسنة الأنبياء مهما كانت أعدادهم ومهما اختلف بهم الزمان والمكان ، فذلك قوله تعالى :

﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾

يعنى اجعلوا الدين قائما دائما مستمرا محفوظا مستقرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب وعلى ذلك لم يبعث الله نبيا قط إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاقرار لله بالطاعة .

وإنما خص الله نوحا وابراهيم وموسى وعيسى بالذكر فى هذه الآية ، لأنهم أرباب الشرائع .

وهذه الأصول الماثلة فى الايمان بالخالق والاحسان إلى المخلوق والايقان بالجزاء على الأعمال فى الدار الآخرة ، هى الاسلام الذى هو دين أنبياء الله ورسله من لدن

إبراهيم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين » .

وإذ استبان لك معنى الدين الذى لم تختلف عليه الأنبياء فقد بقيت كلمة حول الشرائع :

وجملة ذلك أن « الشرائع » تختلف تبعا لاختلاف المصالح على حسب الأحوال والأوقات ، على ما يقول تعالى :

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾

ونضرب لك مثلا لاختلاف الشرائع فى أمرين :

أحدهما : أن الشريعة المحمدية تمنع أن يتزوج الرجل أختين فى وقت واحد . على حين أن شريعة يعقوب الذى هو اسرائيل تبيح هذا الجمع ، إذ أنه عليه السلام قد جمع بين الأختين : « ليا » و « راحيل » . فولدت له إحداهما يوسف وأخا له ، وولدت له الأخرى سائر بنيه على ما يشير إلى ذلك قول الله جل ثناؤه :

﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين * اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾

والأمر الثانى الذى يتجلى فيه اختلاف الشرائع ، قائم فى الحلف بالله على فعل أمر أو تركه . ذلك أن شريعة أيوب لا تبيح الحنث فى اليمين . فإذا حلف الانسان على شىء فلا بد من فعله كما تبين ذلك الآية الكريمة فى سورة « صاد » .

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب * اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب * وخذ بيدك ضغثا[1] فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾

فقد نهت شريعة أيوب الحالف عن الحنث فى يمينه وأمرته بأن يفعل ما حلف عليه ، فى قصة خلاصتها أن أيوب عليه السلام أصابته بلوى عظيمة فى نفسه وماله وأهله وأنه صبر على ذلك صبرا ضرب مثلا لثباته وسعة صدره وشجاعته . فقد روى إبن عباس أن أيوب كان قد حلف ليجلدن إمرأته مئة جلدة ، لأنه رأى منها تقصيرا فى حقه ، وهو مريض ، فلما كشف الله عنه البلاء أمره الله أن يأخذ ضغثا من أعواد الريحان وأن يضربها به ،

---

(١) الحزمة الصغيرة من اعواد الريحان كما ذكر الزمخشرى .

فأخذ مئة عود ثم ضربها بها ضربة واحدة ، وذلك حتى لا يحنث فى يمينه . وأما الشريعة المحمدية فليس فيها إلزام بفعل ما حلف الحالف عليه ، بل فيها أن الحنث فى اليمين قد يكون مطلوبا شرعا فى بعض الأحيان ، على ما جاء فى الحديث الشريف :

« من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها ، فليكفر عن يمينه ، وليفعل الذى هو خير » .

والكفارة فى الشريعة المحمدية تكفلت ببيانها آية من كتاب الله :

﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة * فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام * ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم * واحفظوا أيمانكم * كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾

وجملة القول فى وحدة الدين مع اختلاف الشرائع ينتظمه الحديث النبوى الشريف الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الأنبياء إخـوة أبناء علات أمهاتهم شتى ودينهم

واحـد »[1] .

فقد جعل النبى فى هذا الحديث شرائع الأنبياء بمنزلة الأمهات . وجعل الدين بمنزلة الأب لأبناء ، والأبوة بالنسبة للأبناء ، لا يختلف معناها بينهم . وكذلك الدين ، هو بالنسبة لأنبياء الله ورسله لا اختلاف عليه بينهم .

وحق لك علينا حيال هذا الحديث أن نذكرك بأن الأبناء إذا كانوا لأب واحد وأم واحدة ، فإن اللغة تطلق عليهم كلمة « أعيان » لأنهم متساوون فى ميراثهم ـ خلقة وخلقا . . من أبيهم وأمهم . وإذا كانوا لأب واحد وأمهات مختلفات ، فإن اللغة تطلق عليهم كلمة « أبناء العلات[2] » لأنهم ـ وإن تساووا فى حظهم من أبيهم ـ غير متساوين فى حظوظهم من أمهاتهم . وإذا كانوا لعدة آباء من أم واحدة ، فإن اللغة تطلق عليهم كلمة « أضياف[3] » لأنهم بحكم اختلاف آبائهم تختلف حظوظهم منهم كما تختلف عينا الفرس ، فإحداهما

---

(١) تيسير الوصول إلى جامع الأصول

(٢) العلات : وهى المرأة يتزوجها الرجل على زوجة له قبلها فيجتمع له بذلك زوجتان فى آن . .

(٣) الأضياف من الناس : هم الذين تختلف أشكالهم وربما اختلفت أخلاقهم يتبع كل واحد منهم أباه فى صفاته الظاهرة والباطنة إذ كان آباؤهم مختلفين وأمهم واحدة .

زرقاء . والأخرى سوداء كحلاء . وكلمة علات فى الحديث الشريف تومىء إلى البيئة العربية من حيث كان البعير لا يشرب دفعة واحدة حتى يروى ولكنه يشرب مرة بعد مرة والشربة الأولى تسمى نهلة والشربة الثانية تسمى علة . .

وكلمة علات فى الحديث الشريف ، على تشبيه دقيق لا يدركه على وجه صحيح إلا من يتمثل البيئة العربية فيرى وجه الشبه ماثلا بين الرجل يتزوج أخرى على زوجته الأولى وبين البعير يشرب أول ما يشرب ثم يمسك عن الشرب ليعود إليه فيشرب ثانية حتى يروى . فالشربة الأولى تطلق عليها اللغة كلمة نهلة . والتى تليها تطلق عليها اللغة كلمة علة . وكذلك الزوجة الأولى للرجل كأنها نهلة ، والزوجة التى تليها مجتمعة معها كأنها علة بالنسبة للبعير .

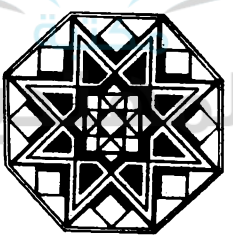

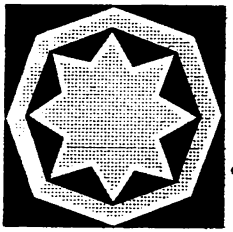

الايمان درجات

من الأمور التى تناولها علماء الكلام بالمجادلات الموغلة فى باب النظر والافتراض « **الايمان با لله تعالى** » . فقد أداروا حجاجهم ، على أنه يزيد وينقص أو يقوى ويضعف . وقد كان مما تناولوه فى أثناء هذا الحجاج قول الله تعالى فى شأن أبى الأنبياء إبراهيم :

﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن * قال بلى ولكن ليطمئن قلبى * قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا وأعلم أن الله عزيز حكيم ﴾

ففى هذه الآية بيان من الله تعالى بأنه قد استجاب لخليله ابراهيم دعاءه ، فأمره أن يأخذ أربعة من الطير : طاووس وديك وحمامة وغراب ، فيضمها إليه ، ثم يجعل كلا منها على جبل . فاذا تم له ذلك دعاها فأتته سعيا . فكذلك يدعو الله تعالى الموتى ، فيستجيبون دعاءه إياهم ، استجابة لأربعة من الطير دعاء ابراهيم .

وقد أختلف أهل العلم فى معنى كلمة (**صرهن إليك**) فرأى بعضهم أن معنى هذه الكلمة قطعهن . مستندا فى ذلك الى أن الصورة التى يطمئن بها قلب إبراهيم ، ينبغى أن تكون متشابهة للموتى فى قبورهم ، وقد بليت أجسادهم وزالت معالم الحياة عنهم .

بيد أن شيخ المفسرين ابن جرير ذكر أن الفعل (صرهن اليك) لا تعنى تقطيع الأطيار ، ولكنها تعنى تفريقها على رؤوس الجبال ، وتوجيهها نحوه . وصرهن إليك » تعنى أضممهن إليك ووجههن إليك . وعلى ما يقول أهل اللغة « صر وجهك إلى » بمعنى أنه أقبل به على . وكذلك يقول العربى : إنى إلى بلدى وأهلى لأصور . بمعنى أنه مشتاق مائل .

وفى ذلك يقول الشاعر :

الله يعلم أنّا فى تلفُّتنا
يوم الفراق إلى جيراننا صُورُ

فكلمة « صُور » ـ على مثال سُود هى جمعُ لأصْوَرْ وصوْراء ـ على وزن أسود وسوداء ـ وكذلك تقول العرب : صاره إلى وطنه شوق شديد ، تعنى أن الشوق آماله الى وطنه بما فيه ومن فيه ، مما تسكن إلى نفسه ويطمئن به قلبه .

وما أحسن قول الشاعر فى هذا المعنى من أبيات جباد ، ذكرها العلامة محق تفسير الطبرى ومعلق حواشيه :

إذا ذُكَرتْ سلمى له فكأنما
تغلغل طفل فى الفؤاد وجيعُ
وإذ دهرُنا اغترارٌ وطيرنا
سواكن فى أوكارهن وقوع
قضت من عيانٍ والطريدة حاجة
فهن إلى لهو الحديث خضوع
عفائفَ الاذاك ، أو أن يصورَها
هوىً ، والهوى للعاشقين صَرُوع

فالشاهد المراد من هذه الأبيات ، هو أن الهوى يصُور أهله ، ويُميلهم الى ما تشتغل به النفوس وتطمئن إليه القلوب . والعياف والطريدة ، لعبتان من لعب صغار الأعراب . فالمعنى ـ على هذا ـ أن سلمى وأترابها قد

أدركن وكبِرْن ، فترفعن عن لعب الصغار والأحداث ،وحُبِّب إليهن الحديث والغزل ، فهن خاضعات له مائلاتٌ إليه ، ولكنهن ـ مع ذلك ـ عفيفات ، ليس لهن من نزوات الصبا إلا الأحاديث والغزل ، وإلا أن يعطف قلوبهن الهوى والعشق ، والهوى لأهله صَروعُ قتّال .

وإذ قد كان الفعل « صار يصور » ، يعطى معنى الامالة دون تقطيع الأطيار ، وتفريق أجزائها على الجبال ، فقد كان من الأقرب والأيسر الأخذ بهذا المعنى فى الآية الشريفة ، فى خطاب أبىَ الأنبياء إبراهيم عليه السلام . ومن أراد المعنى الآخر ، فليس عليه حَجْرٌ ولا حرج ، إذ كان الكلام يحتمل كُلًّا من المعنيين ، فبأيِّهما أخذت ، فأنت مصيب معنىً أقرته اللغة ، وأخذ به ثقات أهل التأويل . ولعلك سائلٌ بعد ذلك عن المعنى الذى يزداد به إيمان أبى الأنبياء ويقوى يقينه ويظفر بالطمأنينة التى أرادها من سؤاله ربه ، كيف يحيى الموتى ؟ .

وجواب سؤالك هذا تكفل به جار الله الزمخشرى حيث قال : إن العلم علمان : علم استدلال ، وعلم ضرورة . وعلم الاستدلال ، يجوز معه التشكيك . بخلاف علم الضرورة فانه لا يحتاج الى دليل .

ولا ريب فى أن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد

للبصيرة واليقين ـ فسؤال إبراهيم ربَّه أن يريهُ كيفية إحياء الموتى ، إنما كان من أجل طمأنينة القلب التى لا مجال فيها للتشكيك من حيث كان العلم الضرورى عن طريق العيان ينضم الى العلم الاستدلالى عن طريق البرهان فيزيدُه قوة الى قوة .

ذلك أن إبراهيم فى إعتزاله قومه كان قد ظفر بالايمان الناشىء عن العلم الاستدلالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض والموازنة والاستنتاج ، ثم أراد صلوات الله عليه أن يضم إلى هذا العلم الاستدالى القابل للتشكيك ، علم الرؤية والمشاهدة لكى يظاهر علم الرؤية والمشاهدة ، علم الموازنة والاستنتاج .

وبذلك المعنى الذى قرره الزمخشرى لا يكون إبراهيم قد خالجه الشك فى القدرة الألاهية على نشر الموتى وحشرهم للجزاء على الأعمال .

وليس فى الآية الكريمة ما يشير الى صورة من الشك طافت بإبراهيم أو راودت فكره .

* * *

وجملة القول فى ذلك ، أن ورود الايمان مقترنا بالباء ، يكون معناه التصديق بما دخلت الباء عليه ، كما فى الآية الشريفة :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾

فالايمان فى هذه الآية يعنى أن رسول الله ومعه المسلمون ، قد صدقوا بما أنزل الله من كتاب وابتعث من رُسل ، دون تفريق بين كتاب وكتاب ، ولا بين رسول ورسول .

فأما إذا ورد الايمان مقترنا باللام ، فانه فى هذه الحال يكون بمعنى التطامن والخضوع ، كما فى قوله ـ جل ثناؤه :

﴿ فما آمن لموسى إلا ذريةٌ من قومه على خوف من فرعون ومَلَئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ فى الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾

فالايمان فى هذه الآية إنما يعنى التطامن والخضوع . والمعنى ، أنه لم يؤمن برسالة موسى خاضعا له متطامنا إليه ، إلا ذرية من بنى إسرائيل ، على شدة الخوف من فرعون ومن أشرافهم وكبرائهم وذوى السن فيهم ، إذ كان فرعون من قوة البطش وغلَظ القلب وشدة الاستعلاء على الناس ، بحيث لا يتورع عن إنزال أقسى العقوبة بكل من يخالف رأيه أو يتجهم هواه ، كما فعل مع السحرة المصريين ، الذين ظهر لهم الحق فى معجزة

موسى ، فأعلنوا إيمانهم به ، مؤثرين جانب الله على جانب فرعون ومن يجاريه فى هواه .

ثم إن العبرة التى لا ينبغى تجاهلها فى هذه الآية ، أن ذوى الأسنان الكبيرة وأصحاب التجاريب الطويلة ، لا ينفكون يؤثرون المصانعة والمجاملة بمنأى عن المصارحة والمجاهرة ، وغير تلك الطريق ، طريق الشباب الذين أشارت إليهم كلمة « الذرية » فى الآية الشريفة ، ذلك أن الشباب أدنى إلى المعالنة مهما تعرض بذلك لألوان المحن وصنوف البلاء .

ولا يجىء الايمان فى القرآن متعديا بالباء ـ كما أسلفنا لك ـ إلا مقررا لحقيقة الايمان ، فان أنت وجدت فى كتاب الله آية على غير هذه الصورة ، فأعلم أنها واردة على سبيل السخرية ممن وردت فى حقهم ، كما فى الآية :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت[1] ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ .

---

(١) الجبت : السحر ـ الطاغوت : الشيطان ـ كما ذكر ذلك أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه وأرضاه

فقد تضمنت الآية السخرية من أولئك الذين أعطاهم الله كتابا يهديهم سواء السبيل ، فأعرضوا عنه الى الايمان بالجبت والطاغوت ، مؤثرين جانب الشرك وعبادة الأصنام فى أبى سفيان وأصحابه ، على جانب التوحيد وإخلاص العبادة لله فى محمد وأصحابه .

ولعلك سائل عن وجهة السخرية فى هذه الآية ، فأعلم أن الايمان ، مأخوذ من الأمن ومنوط به ومفضٍ إليه ، فاذا كان هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، قد تركوا الايمان برب العالمين إلى الايمان بالأصنام ، فانهم حاولوا الحصول على الأمن بما لا يحصل الأمن به ، إذ ليس من شأن القلب الخالى من الآفات أن يطمئن الى الباطل ، فاذا أطمأن إليه وآمن به ، فلابد أنه أسير نزوة ، وأن إيمانه ليس خليقا باسم الايمان . وبيان ذلك ما يرويه جار الله الزمخشرى من أن حُيَىْ بن أخطب وكعب بن الأشراف اليهوديين ، خرجا الى مكة مع جماعة من اليهود ، يحالفون قريشا على محاربة محمد رسول الله ، فقالت قريش لأولئك الوافدين : أنتم أهل كتاب ، فأنتم أقرب الى محمد منكم إلينا ، ولسنا نأمن مكركم ، إلا أن تسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم . ففعلوا ذلك وسجدوا لآلهة قريش فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت .

وهنا يذكر الرواة ، أن وفد اليهود إلى قريش فى مكة ، حين أطمأن بهم المقام ، أخذوا يتساءلون فيما بينهم .

فقال أبو سفيان : إنى سائلكم يا معشر يهود فأجيبونى : أنحن أهدى سبيلا أم محمد ؟ . فقال كعب : أنتم ـ والله ـ أهدى سبيلا من محمد .

فذلك هوَ ما تضمنته الآية :

﴿ يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾

وقد يخالجك الشك فيما ذكر الرواة ، من أن اليهود سجدوا لآلهة قريش ، فتنكر ذلك على من روى الخبر المذكور ، ضَنًّا بالمؤمنين من أهل الكتاب على أن يشكوا فى وحدانية الله فيسجدوا للأصنام . فاذا وقع فى نفسك هذا المعنى ، فأذكر الآية من سورة الأعراف :

﴿ يؤمنون وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتَوْا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة * قال إنكم قوم تجهلون ﴾

ففى هذه الآية ذكر العلامة البَغَوىُّ أن ذلك القول لم يكن شكاً من بنى اسرائيل فى وحدانية الله ، وإنما معناه : إجعل لنا شيئا نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله .

فقد ظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة وإنما كان ذلك من شدة جهلهم . وراجع محاسن التأويل للأمام القاسمى ، وهو معنى لا بأس به ، إذ كان العرب فى الجاهلية يعبدون الأصنام ليتقربوا بها إلى الله ، كما فى الآية مفتتح سورة « الزمر » :

﴿ ألا لله الدينُ الخالص والذين اتخـذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ﴾

ففى هذه الآية بيان من الله تعالى بأن المشركين لا ينكرون أن يكون الله هو خالق السماوات والأرض ، ولئن كانوا قد عبدوا الأصنام ، إنهم لم يكونوا يعبدونها على أنها خالقة أو نافعة أو ضارة بذاتها ، وإنما كانت عبادتهم إياها من أجل أنها كانت تماثيل لقوم صالحين ، كما تشير الى ذلك الآية من سورة نوح :

﴿ وقالوا لا تَـذَرُنَّ آلهتكم ولا تذرن وَدًّا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلُّوا كثيراً ﴾ الآية .

فقد قال ابن عباس إن هذه الأصنام الخمسة ، إنما كانت صورا لقوم صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهؤلاء

أتباع يقتدون بهم ، فلماً ماتوا زينّ لهم إبليس أن يصوِّروا صورهم ليتذكَّروا بها إجتهادهم ، فلما ماتوا هم وجاء آخرون من بعدهم ، قالوا : ليتنا نعلم علم هذه الصور ، وماذا كان آباؤنا يصنعون بها . فألقى الشيطان فى روعهم أن آباءهم كانوا يعبدونها فترحمهم وتسقيهم الغيث ، فعبدوها . فمن ذلك الوقت بدأت عبادة الأوثان .

فلا ريب أن الأيمان بالله الخالق الرازق القادر على كل شىء أصلٌ فى كل دين ، جاء به من عند الله المرسلون أو اختلقته الأوهام والظنون .

وننتهز هذه السانحه لنروى لك ـ أعزّك الله ـ ما ذكره حول هذا المعنى المؤرخ جاك مندلسون فى كتابه : « الرب والله وجوجو » وهو كتاب تحدث المؤلف فيه عن الأديان فى أفريقيا فقال : إن جميع الأديان الأفريقية التقليدية ، تعتقدُ فيما وراء الموت ، كما تعتقد أن المتوفى تستمرُّ حياتهُ فى عالم الأرواح ، وأنه يتصلُ بأقاربه الأحياء ، فيظلُّ يرعاهم كما كان يفعل حال حياته ، وهذا هو المعنى الذى يعبرِّ عنه المؤرخون خطأً بأن الأفريقيين كانوا يعبدون الأسلاف . والذى حمل الأفريقيين على ذلك ، إيمانهم بأن الله أسمى من أن يتصل به البشر رأسا ، وإنما يكون اتصالهم به عن طريق أرباب أدنى منزلة منه ، وقد وكَّلهم سبحانه بشئون الحياة المختلفة ، فالله ـ من وجهة النظر

الغالبة فى تلك الديانات ـ خلق الكون بأكمله ووهبه الحياة ، ووضع نواميس الطبيعة ، ولكنه لا يمكن الاتصال به فى الطلبات اليومية للبشر إلا عن طريق أرباب أو أرواح من أرواح الأسلاف ، وكلُّ رب أو روحٍ ، يختصُّ بعمل معين على الأرض . فهناك روح النهر ، ورب الغابة ، والمطر ، والصيد ، والزرع . . وما شابه ذلك ، وإلى هذه الأرباب أو الأرواح يكون الالتجاء أولا .

وبذلك تكون الديانات الأفريقية التقليدية كلها مجمعة على وجود إلاه واحد ذاتىّ الوجود وأزليُّه .

وغير ذى حاجة الى مزيد بيان ، أن الاسلام الذى جاء به من عند الله محمد رسول الله قد قضى على كل هذه الأوهام التى لا تساندها حجة ولا يقوم عليها برهان .

ذلك أن الله تعالى هو خالق الكون ، بكل ما فيه ومن فيه ، وأنه سبحانه قد كرم بنى آدم وأسجد لهم ملائِكَتَه وسخر لهم ما خلق مما ينعمون به فى الدنيا ، وقد يفضى بهم الاحسان فى تناول أنعم الله عليهم ، الى نعيم الآخرة ثم هو ـ جل ثناؤه ـ لم يجعل بينه وبين عباده واسطة . فكل عباد الله سواء أمام الله :

وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾

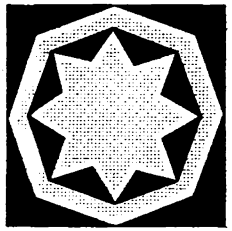

تيسير التدين
إستبقاء لنعمة الدين

أسلفنا لك ـ أعزك الله ـ أن ثم فرقا بين الدين والتدين ، من حيث كان التدين منهاجا نظريا ، وكان التدين تطبيقا عمليا لهذا المنهاج .

وليس يخفى عليك أن كل قضية متصلة بالدين لابد لها من سند فى كتاب الله الكريم وسنة نبيه العظيم .

فأما السند فى كتاب الله ، فقول الله سبحانه :

﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾

وقوله تعالى :

﴿ ما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ الآية .

وأما السند فى السنة الشريفة ، فقوله صلوات الله وسلامه عليه :

« **يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا** » .

وقد يستلفت انتباهك كلمة الحرج فى الآية الكريمة ماذا يراد بها فى اللغة العربية الشريفة ، ثم فى الشريعة المحمدية المباركة .

فأعلم ـ رحمك الله ـ أن الحرج فى اللغة ، هو الغيضة من الشجر الملتف يصعب على الداخل فيها ، الخروج منها .

وإذ قد كان بين المعنى اللغوى والمعنى الشرعى تناسب ، كان الحرج الشرعى ، يعنى تكليف المسلم ما يجاوز غاية طاقته ويخرج به عن حدود قدرته .

وجملة القول فى هذا الباب ، أن الله قد اصطفى لدينه من اصطفاهم من ذرية أبى الأنبياء إبراهيم ، ثم لم يجعل عليهم فيه حرجا يعنتهم ، فى قيامهم بما كلفهم إياه فى شتى شئون الاجتماع ، كما أنه ـ سبحانه ـ لم يحرمهم المخلص من سوء الجزاء على ما عسى أن

يقترفوه من سوء الأعمال ، بل يسر لهم التوبة النصوح : بالكفاءات ، ورد المظالم وما إلى ذلك من كل ما يقيهم مساخط الله ، ويدنيهم من مراضيه على ما يشير اليه قوله ـ سبحانه :

﴿ إلا من تاب و آمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾

وليس يرتاب الفقهاء بالقرآن فى أن هذه الآيات قد تضمنت أن الحرج مرفوع عن الأمة الاسلامية فى العاجل والآجل .

ولما كانت العصبية فى مختلف صورها مفضية بالأمة إلى الهرج والفساد والقلق الاجتماعى ، تجهمها رسول الله بكل وجه ، وأخذ عليها كل طريق .

وآية ذلك حديث يقول فيه النبى :

« ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » .

وقد سئل صلوات الله عليه ـ عن العصبية فقال :

« أن تعين قومك على ظلم » .

وغير ذى حاجة الى بيان أن العصبية نوعان : عصبية

ظالمة وأخرى فطرية . وقد تكفل هذا الحديث ببيان معنى العصبية ، فذكر أنها هى التى يتوسل بها المتعصب الى ظلم ، ولا ريب فى أن الظلم قبيح ثم لا ريب فى أن كل ما يؤدى الى القبيح . . قبيح .

هذا وان العصبية الفطرية ، فإنها العصبية التى لا يملك الانسان مقاومتها لأنها مركوزة فى فطرته . وفى هذه العصبية جاء الحديث الشريف :

« **خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم** » .

والذين يتدبرون القرآن يجدون فى سورة المتمنة الآية التى تنهى أهل الاسلام عن العصبية الظالمة ، فتأثرهم بالاقساط الى غير المسلمين . .

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾

ففى هذه الآية يذكر شيخ المفسرين أن حكمها ينتظم جميع أهل الملل والديانات . فالبر بهم والاقساط اليهم ، حق لهم على المسلمين مع اختلافهم فى العقائد التى يستمسكون بها ويقيمون نظام حياتهم عليها . ذلك أن الله تعالى لم يختص بهذه الآية بعضا دون بعض ، وفى قصة أسماء بنت أبى بكر مع أمها المشركة تأييد لما قرر ذكره

شيخ المفسرين حيث قالت أسماء : قدمت امى المدينة وهى مشركة ، فأتيت رسول الله فقلت أن أمى قدمت من مكة أفأصلها يارسول الله ؟ . فقال صلى الله عليه وسلم : نعم صلى أمك .

فأنزل الله هذه الآية :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين . . ﴾

وهذه الآية ـ فيما ذكر العلامة القاسمى ـ تدل على جواز البر بين المشركين والمسلمين . وإن كانت الموالاة منقطعة .

وهذا الحكم من البر والاقساط لا ينطبق على الذين عالنوا بالعداوة للمسلمين فأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم كما فى الآية :

﴿ أنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾

وليس يشك أهل الانصاف فى أن هاهنا تيسيرا يستبقى به المتدين نعمة الله فى الدين ، إذ كان التنافر بين الطوائف فى الشعب ، داعية تربص بعضهم ببعض

وإيذاء بعضهم لبعض ، ومن شأن ذلك أن يقضى على الوحدة بالفرقة ، وعلى السكينة بالقلق والازعاج وبذلك تنقلب المنحة الإلهية بالدين ، محنة تضيق بها الصدور وتشقى بها حياة المتدين ومن التيسير الذى يستبقى للمتدين نعمة الدين ، أنك ترى القرآن يبيح للمسلم أن يأكل من ذبيحة الكتابى ، ولو ذكر الذابح على ذبيحته اسما غير اسم الله تعالى .

وجملة القول فى هذا الموضوع أن الله تعالى حرم على المسلم أن يأكل من ذبيحة لم يذكر عليها اسم الله كما فى قوله تعالى :

﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾

ففى هذه الآية من سورة الأنعام المكية يأمر الله تعالى المسلمين بألا يأكلوا من ذبيحة لم يذكر عليها اسم الله . وهذا الأمر العام يتناول الميتة ، فلا يسوغ الأكل منها . . كما يتناول ما ذكر عليه اسم غير الله ، ومعروف عند العلماء بالشريعة أن القرآن ، مكى ومدنى وأن المدنى مبنى على المكى . ومعروف كذلك أن كل متأخر فى النزول ، مبنى على المتقدم .

وغير خفى على الفقهاء بعلوم القرآن أن سورة المائدة نزلت بالمدينة . فهى بالنسبة إلى سورة الأنعام مبنية عليها ، ومقيدة لبعض الأحكام الواردة فيها فاذا قرأ القارىء الآية من سورة الأنعام وقع فى نفسه أنها تحرم عليه أن يأكل من الميتة ، كما تحرم عليه أن يأكل من ذبيحة أهل الكتاب . بيد أنه يجد صورة من التيسير ترضى دينه ودنياه ، إذا قرأ آية المائدة :

﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب . حل لكم وطعامكم حل لهم . . ﴾

ذلك أن فى سورة الأنعام تحريما للذبائح التى لم يذكر اسم الله عليها ، غير أن آية المائدة قيدت آية الأنعام فأباحت للمسلم أن يأكل من ذبيحة الكتابى ولو لم يذكر إسم الله على الذبيحة ، بل أباحت له أن يأكل من تلك الذبائح ولو ذكر عليها إسم غير الله . وسند ذلك ما قال عطاء : كل من ذبيحة النصرانى وإن قال باسم المسيح ، لأن الله قد أباح ذبائحهم ، وقد يملكم ما يقولون .

ومن التيسير الذى يستبقى للمتدين نعمة الدين ، تزين المرأة المسلمة لزوجها ، إذ كان ذلك مما يبقى على الألفة والمودة بينهما أخذا بالأدب النبوى فى الحديث الشريف :

« خير كنوز المسلم ، الزوجة الصالحة : إذا نظر اليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها ، وفى ماله » .

وفى صحاح الأحاديث أن رسول الله كره للمرأة أن تكون كفها خالية من الزينة . فذلك حيث أخرج أبو داود عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت : « أومأت امرأة من وراء ستر بيدها كتاب ، الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقبض رسول الله يده فقال : « ما ادرى أيد رجل أم يد امرأة ؟ . قالت : بل يد إمرأة يارسول الله . فقال ـ صلوات الله عليه : « لو كنت امرأة لغيرت أظفارك » يعنى بالحناء .

ففى هذا الحديث عبارة لا مندوحة لك عن التدبر فيها وهى لو كنت إمرأة فانها فى البيان العربى تدل على أن المرأة التى تهمل زينتها ، تنكر حق أنوثتها عليها . وإنكارها هذا الحق إهمال فى حق الزوج واستجلاب لمساخطة . ولم يكن رسول الله ليقول قولا يلقى به على عواهنه بغير فكر ولا رؤية ، فاذ قد أنكر صلوات الله عليه على المرأة إهمالها أمر زينتها ، فقد أراد بذلك أن يلفتها لفتا شديدا الى العناية بزينتها عناية تسعد زوجها وتسبغ على أسرتها ظلال السكينة والسلامة .

وليس يخفى عليك أن الزينة مما تختلف به الأزمنة والأمكنة ، فاذا رأيت فى هذا الحديث الذى روته أم المؤمنين أنها فسرت تغيير الأظافر بالحناء عن طريق الاختضاب ، فمبلغ علمنا أن ذلك لا يعنى الأخذ به فى كل زمان ومكان على تبدل البيئة واختلاف الزمن .

وقد تجد فى حديث أم المؤمنين عائشة ما يسوغ للناظر القادر على الاستنباط ، الانصراف عن تزيين الأظافر بالخضاب إلى تزيينها بما هو أدنى الى الأدب النبوى الشريف وهو المعروف فى عصرنا « بالمانيكير » ومرجع ذلك إلى أمرين :

أحدهما : أن الخضاب يكون للكف كلها وليس للأظافر وحدها ، مع أن الحديث نص على الأظفار .

وثانيهما : أن الحناء ذات رائحة كريهة فى بعض الأحيان كما فى حديث عائشة نفسها . وقد سألتها إمرأة عن خضاب الحناء . . فقالت أم المؤمنين : لا بأس به ، لكنى أكرهه لأن حبيبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يكره رئحة .

وأنت إذا تأملت فى هذا المعنى ـ على ما ينبغى له ـ فانك لا ترى مانعا من أن تأخذ المرأة المسلمة بأسلوب العصر فى تزيين يديها ولا أكتمك أنك قد تجد من أهل

العلم الموثوقين من لا يوافقك على الأخذ بهذا الذى تقول ، وربما استند فى عدم الموافقة الى أن وضوء المرأة فى هذه الحال غير صحيح ، إذ كان الماء لاينال الظفر تحت الطلاء . ولعل من حقك فى هذه الحال أن تقول : إن الوضوء صحيح مع أن الماء لا ينال الظفر تحت الطلاء . وصحة الوضوء فى هذه الحال كصحة الوضوء مع الخاتم الضيق المأذون فيه . . إذ كان الماء لا يبلغ الجلد تحت الخاتم ، كما أن الماء لا يبلغ الظفر تحت الطلاء ، مع أن الجلد أحوج الى الماء تحت الخاتم من الظفر تحت الطلاء .

وقد قال فقهاء المالكية : ليس على المتوضىء ولا على المغتسل أن يحرك خاتمه المأذون فيه لكى يتخلل الماء ما تحته ، فاذا قد كان الوضوء فى هذه الحال صحيحا ، فليكن صحيحا ايضا مع وجود الطلاء .

وقد يقول لك فاضل من أهل العلم أن القياس لا يجرى فى العبادات فقياس الطلاء على الخاتم الضيق غير مسلم .

وهناك لا تجد لك مندوحة عن القول بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد أذن للمرأة فى أن تتزين بخاتم الذهب ، على حين أنه أمرها أن تتزين بتغيير الأظفار ، والفرق بين

الأذن والأمر ، تغيير الأظفار وتحميل الأيدى ، أدخل فى باب الزينة من التختم بالذهب الذى لا يزيد على أنه مأذون فيه للمرأة ،

كما يشير الى ذلك الحديث الذى أخرجه فى التيسير عن أم المؤمنين عائشة حيث ذكرت : أن هند بنت عتبة سألت رسول الله أن يبايعها على الاسلام . . فقال لها صلوات الله عليه : لا أبايعك حتى تغيرى كفيك كأنهما كفا سبع يعنى أن هذه المرأة قد أسرفت فى إهمال زينتها والانصراف عن العناية بكفيها . حتى أصبحت أشبه بالوحوش منها بالنساء ، وصدق رسول الله فى قوله الشريف :

« ما تركت خيرا إلا أمرتكم به ولا شرا إلا نهيتكم عنه » .

ونعود الى القياس . ونفى بعض أهل العلم له فى باب العبادات فنقول وبالله التوفيق : إن الله يقول :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾

ففى هذه الآية كلمة « شىء » وهى تشمل العبادات وغير العبادات . وقد ذكر فى معنى هذه الآية صاحب المنار : أن أهل الحل والعقد إذا تنازعوا فى شىء لم يذكر حكمه فى الكتاب والسنة والاجماع ، فإن عليهم أن يردوا حكمه إلى الأحكام المنصوصة فى الوقائع المتشابهة له ، وذلك هو القياس فثبت أن الآية دالة على الأمر بالقياس .

ثم أن مما يعين المرأة المسلمة على أداء الصلوات ألا تواقع حرجا فى الوسائل التى تعينها على القيام بشعائر دينها . وقد كان صلوات الله عليه إذا خير بين أمرين ، اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، والنبى قدرة للمسلمين ، فليكن الأيسر هو الأحق بالايثار . وإلا فان أخشى ما يخشاه أهل الغيرة أن تنصرف المرأة عن الصلاة إذا حيل بينها وبين التيسير فأرغمت بذلك على أن تلزم جانب العسر الذى يفضى إلى الحرج ، والحرج مرفوع عن الشريعة المحمدية المباركة .

ومن التيسير الذى يستبقى للمتدين نعمة الدين ، أن يباح للمرأة المسلمة مصاحبة زوجها إلى المآدب التى يدعى إليها ، مادامت تحرص على التزام الحشمة ، وتتقيد بالزى الاسلامى المشروع . .

وسند هذه القضية أم المؤمنين عائشة التى صحبت

رسول الله الى طعام دعى اليه صلوات الله عليه . . فذلك حيث اخرج مسلم والنسائى أن جارا لرسول الله جاء اليه يدعوه الى طعامه فسأله عن دعوة عائشة معه : فذكر الرجل أنه لم يدعها فأبى النبى أن يستجيب الدعوة ثم جاءه الرجل مرة ثانية يدعوه . وسأله النبى السؤال نفسه . فقال الرجل نعم أدعوها معك يارسول الله . فاستجاب النبى مع أم المؤمنين الى دعوة الجار .

وعلى هذا النحو نفسه من التيسير ، يكون للمرأة . . ولو عروسا ـ أن تقوم على خدمة ضيوف زوجها . فذلك حيث روى الامام البخارى[1] عن أبى أُسَيْد الساعدىِّ أنه دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وليمة عرسه . وكانت عروسه هى التى تخدمهم . . وقد ذكرت ـ رضى الله عنها ـ أنها أنقعت من الليل تمرات . فقدمت النقيع الى رسول الله . فشرب صلوات الله سلامه عليه .

وبتدبر هذه المعانى لا يرى المسلم حرجا فى أن تصحبه زوجته الى مأدبة يدعى إليها . ثم لا يرى حرجا ـ كذلك فى أن تقوم زوجته معه على خدمة ضيوفه . مادامت المرأة ملتزمة فى زيها أدب الاسلام . وما كان لذى عقـل ودين

---

(١) كتاب شرح الزبيدى لشيخ الاسلام الشرقاوى رضى الله عنه .

أن يتنزه عن تصرف رضيه رسول الله . وأقر أصحابه وصواحبه عليه .

وليس من شك فى أن الأخذ بهذه الصور إيثار لأيسر الأمرين ومن حق المسلم أن يؤثر التيسير على التعسير ، مادام يجد لذلك سندا فى كتاب الله أو سنة رسول الله أو سيرة الاسلاف الصالحين . وأهل الاسلام يعلمون أن رسول الله كان يختار أيسر الأمرين ، وهو صلوات الله عليه قدوة للمسلمين . فلا بأس على أحدهم أن يختار الأيسر إقتداء برسول الله والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

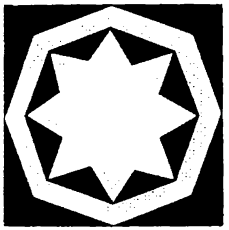

الاسلام سماحة وسلام

آثرنا لهذا العنوان أن يكون آخر مراحل هذا الكتاب ، لأنه يتضمن معانى شريفة تقوم مقام الدليل على ما أسلفنا من قضايا ، ينتفى بها الحرج عن المسلم فى قيامه بشعائر دينه ، فاذا المسلم ـ على ذلك ـ فى سعة من الأمر بين دينه ودنياه ، فهو لا يتجهم الدين من أجل الدنيا ، ولا يتجهم الدنيا من أجل الدين . ومرد ذلك الى السماحة التى تتجلى فى الشريعة المحمدية على غاية الوضوح ، لمن يؤثر العدل والانصاف على الجور والميل والاعتساف .

واذ قد كان استصحاب اللغة العربية حقا على الكاتب العربى لا يمل الاقتضاء ، فان أحق الموضوعات بقضاء الحق له ، ما يكون موضعه فى حكم الشريعة ، يؤيده موقعه فى فقه اللغة . ونبادر الى القول بأن الذى يستعرض الكلمات العربية ، التى تبدأ بحرف « السين » وتنتهى بحرف « الحاء » لاجرم أنه يروعه منها أنها تدور حول معنى مشترك بينهما ، يتمثل فى المساهلة والمسامحة والمباشرة . تقول العرب : رجل مسماح من قوم مساميح ، وإمرأة سمحة من نساء سماح . ومن المقول فى ذلك : إن فى الحق مسمحا عن الباطل . وكذلك تقول العرب : قوس سمحة تواتى الرامى بها ولا تستعصى عليه . ومن هنا قالوا : ملة سمحة بمعنى أنها خالية من الحرج ، فالكلمات من هذا القبيل تعنى المسامحة والمساهلة ، كيفما انتظمتها الأساليب وحيثما اختلفت بها سبل الاشتقاق . وفى الحديث : « السماح رباح » ومن هنا جاء وصف الاسلام بأنه الحنيفية السمحة ، لا ضيق فيها ولا شدة ولا حرج . وربما كان من الحق أن نشير الى أن الحرج الذى نفاه الله عن الاسلام ، ونفاه النظر الصحيح عن الشريعة ، لم يكن واضح المعالم فى تصور العرب الصرحاء أنفسهم ، حتى بينه لهم ترجمان القرآن

ابن عباس ، حيث قال : « إنما ذلك » سعة الاسلام فقد جاءه أحد أصحاب النبى فى ناس من قومه ، فسأله عن الحرج . فقال له ولهم معه : أولستم عربا ؟ . ثم دعا برجل من هزيل . فقال له : ما الحرج فيكم ؟ قال : الحرج الشجر ما ليس له مخرج . قال ابن عباس : ذلك ، هو الحرج الذى نفاه الله عن الاسلام وهو ما لا مخرج له .

وغير ذى حاجة الى بيان ، أن السماحة فى الاسلام ماثلة فى إنتفاء الحرج عن المسلم ، إنتفاء لا يرقى إليه غبار الجدال بين ناف ومثبت ، ولا بين جاحد ومعترف . والذى يتمثل هذا المعنى على ما ينبغى له ، تتراءى له تلك السماحة فى مأثورات عن رسول الله يزداد بها المسلم اقبالا على الدين ، وتعلقا به ، وحرصا على القيام بشعائره ، وثقة برحمة الله بعباده رحمة تعدل أو تفضل رحمة الأم الحنون بوليدها الوحيد . فاذا كسب المسلم خطيئة أو إثما ، فليس له أن ييأس من رحمة الله ، لانه سبحانه يقول : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما » . ثم يقول سبحانه مبينا العلاج الشافى من أثر السيئة فى المسىء وفى المجتمع الذى يعيش فيه :

﴿ . . وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل . أن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ .

الآيات من سورة هود

وقد بين معنى الآية رسول الله فى حديث شريف يوصى فيه من أساء بأن يحسن ، فذلك قوله صلوات الله عليه :

﴿ أتبع السيئة الحسنة تمحها ﴾

ومن مظاهر السماحة الاسلامية التى يعتز بها المسلم وينتفع المجتمع على اختلاف الشرائع فيه ، أنك ترى القرآن الكريم يحث أهله على الاستمتاع بما أحل الله لهم من طعام وشراب ثم بما ندبهم إليه من تزيين هيئاتهم الظاهرة ، على ما يقول تعالى :

﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا وأشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق . قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾

فهذه الآيات تدعو المسلم الى الاستمتاع بما يسعده مما أحل الله له ، كما تدعوه الى إجتناب ما حرم الله عليه مما يشقى به مواطنوه . وإذا ظفر ذو الدين ـ من سماحة دينه ـ بما يسعده فى نفسه ويسعد مواطنيه به ، فذلك هو نعيم الدنيا الذى يفضى بصاحبه الى نعيم فى الآخرة لا يحول ولا يزول .

ولعلك تتطاول الى صورة من سماحة الاسلام تكون تطبيقا للمعنى الذى رضيته اللغة العربية الشريفة وأقرته الشريعة المحمدية المسماح ، فأعلم ـ رحمك الله ـ أن ها هنا صورة فقهية تتجلى فيها سماحة الاسلام فتمتهد بها السبل الى تيسير التدين على المسلمين والمقبلين على اعتناق الاسلام فى كثير من جوانب الدنيا : شرقيها وغربيها على السواء .

وقبل أن نعطيك هذه الصورة السمحة ، لا نرى ندحة عن التذكير بأن الشريعة المحمدية مشتملة على أمرين : عزائم ورخص . وأن الرخصة تجىء على صورتين : احداهما أن تكون الرخصة هى الطريق الفاردة بالقدرة على دفع تلف أو إحياء نفس ، وذلك بأن تنزل بالمسلم نازلة الجوع جوعا يتعرض به لتلف نفسه ، فان عليه فى هذه الحال أن يأكل من الميتة ما يقيم أوده ، ويستبقى حياته نزولا على مقتضى الآية الشريفة من سورة الأنعام :

﴿ ٢؛قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ، فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴾

والصورة الأخرى للرخص ، أن تكون طريقا فاردة بالقدرة على دفع مشقة بالغة أو حرج شديد . وذلك بأن تدعو المسلم أو المسلمة داعية من ضرورة أو حاجة ، الى ترك الغسل من الجنابة بالماء الى التيمم ذلك أن التيمم لا يقوم مقام الماء فى التطهير من الحدث الأكبر أو الحدث الأصغر ، ولكنه يبيح للمسلم أن يقيم الصلاة .

وليست هذه الصورة مجرد افتراض ، ولكنها حقيقة واقعة شهدها المسلمون فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وذلك أن عمرو بن العاص رضى الله عنه كان فى سفر ، فرأى فى نومه ما يوجب الاستحمام ، فلما أصبح تيمم وصلى برفقائه إماما لهم . ثم لما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما صنع عمرو لم ينكر عليه ذلك .

وما كان رسول الله ليسكت على أمر يخالف الشريعة ، وبذلك يصبح التيمم لأداء الصلاة رخصة رضيها رسول الله للمسلمين ، سواء فى ذلك دفع المشقة أو تحصيل الحاجة .

ومن أفضل الوجوه التى تتراءى فيها هذه السماحة ، إباحة التيمم للعروس ، إذ كان عليها أن تقيم صلاتها قضاء لحق ربها ، كما أن عليها أن تحافظ على زينتها ، قضاء لحق زوجها أيام عرسها . ولما كان إستحمام العروس مزيلاً لزينتها ، وكان تجديد الزينة إسرافا فى مال قرينها ، أباح الفقهاء بالشريعة لهذه المرأة أن تتيمم وتصلى ، قضاء للحق وصيانة للمال ، إذ كان الاستحمام مزيلا لزينتها من حيث هى عروس . وبهذا يتوافر لها ولزوجها بها أمور ، تحرص الشريعة الغراء أشد الحرص عليها ، وهى : قضاء حق الله بأدائها صلواتها ، ثم اسعادها زوجها بحرصها على زينتها ، ثم حفظها لما له بعدم الاسراف فيه .

ومما ينبغى أن تجعله على ذكر منك ، أن إباحة التيمم للعروس ، رخصة وقد افتى بها عالم أزهرى موثوق فى علمه ودينه مستندا فى فتواه تلك الى حاشية الدسوقى على العلامة الدردير التى تضمنت رأى ابن غازى وابن ناجى .

* * * * *

وأبى عمران من أعيان السادة المالكية . وتلك بلا ريب سماحة فى الاسلام ينتفع بها المسلمون فى خاصة أنفسهم ، وفى دعوتهم غير المسلمين الى الاسلام .

وهذا . ما يتعلق بأحد الجزءين اللذين يتألف منهما عنوان هذا الفصل ، وهو « السماحة » وأما ما يتعلق بالجزء الثانى وهو « السلام » فجملة القول فيه : أن السلام شقيق الاسلام ، وشواهد الصدق فى هذه القضية ماثلة فى اللغة العربية والشريعة المحمدية .

فأما ما يتعلق باللغة ، فهو أن السلام والاسلام يرجع بناؤهما اللغوى الى الحروف الثلاثة الأصول التى هى : السين واللام والميم . والبصراء بفقه اللغة العربية الشريفة لا يخفى عليهم ان الكلمات التى يتألف بناؤها من هذه الحروف الثلاثة الأصول ، إنما تدل على الخلو من الآفات الظاهرة والباطنة .

تقول العرب فى دعائها للمسافر « صحبتك السلامة فى الحل والترحال » ففى هذا دعاء له بأن يحفظه الله من الآفات التى تلحق به فى نفسه أو أهله أو ماله . واذا قال الرجل لفرد أو جماعة « سلام عليكم » فقد آمنهم من شر ينالهم من جهته ، وعلى ذلك جاء قول الله :

﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾

فالقلب السليم هو الخالى من الدغل . وربما أطلقوا كلمة السلام مع مشتقاتها على الخلو من الآفات الظاهرة فى مثل قوله تعالى :

﴿ إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ﴾

فالمراد أنها البقرة الخالية من العيوب الظاهرة .

ولقد سمى الله تعالى الجنة « دار السلام » يعنى أنها دار السلامة الحقيقية التى فيها البقاء بلا فناء ، والغنى بلا فقر ، والعز بلا ذل ، والصحة بلا سقم .

ومن أسماء الله تعالى اسم « السلام » اذ كان سبحانه لا يلحقه العيوب والآفات التى تلحق الخلق . وحيثما وجدت كلمة السلام منسبوة الى الناس ، فذلك يعنى أنهم يقولونها بألسنتهم ، فاذا كانت منسوبة الى الله ، فذلك يعنى أنه تعالى الذى يعطى السلام ويمنحه لعباده .

ومن أعجب ما فى هذا الباب ، أن العرب تسمى الشجر العظيم بالسلام ، كأنهم اعتقدوا إنه إنما عظم وعلا من أجل أنه سليم من الآفات كالحشرات القشرية

وما إليها ، ويساير هذا النظر فى فقه هذه اللغة الشريفة أنهم أطلقوا كلمة السلم على ما يستخدمه الانسان ليصل به الى الأمكنة العالية فيسلم بذلك من الحشرات الأرضية ، ومن مهاجمة اللصوص ، وما الى ذلك .

هذا . ما يتعلق باللغة العربية فى الكلمات ذوات الأصول الثلاثة ، وأما ما يتعلق بالشريعة الاسلامية ، فأول ذلك اعتبار السلام تحية المسلم يلقيها الفرد على الجماعة والراكب على الجالس ، على أنها سنة أو مندوب ، فتستلزم هذه التحية الرد بمثلها أو بما هو أحسن منها .

وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمال إسلام المسلم ، منوطا بسلامة الناس من أذاه . فذلك حيث قال رسول الله صلوات الله عليه فيما روى الشيخ الخطيب :

« **المسلم من سلم الناس من يده ولسانه** » .

وبالتدبر فى هذه الكلمات وأسانيدها ، تكون الدعوة الى السلام شعيرة من شعائر الاسلام . ويكون المجتمع الاسلامى أولى الناس بالانتصار لها والقيام بأعبائها فالداعية المسلم إلى السلام ، وأجد فى التراث الاسلامى أسانيد لتلك الدعوة ، وهذه الاسناد تتمثل فى عدة أمور تضمنتها آيات من كتاب الله الكريم :

أولها ، الحرص على رعاية العهود واحترام المعاهدات بحيث لا يسوغ أخذ العدو على غرة بل ينبغى إعلامه بأن ما كان بين الفريقين من عهد لم يعد صالحا للتمسك به ، فذلك قول الله تعالى فى سورة الأنفال :

﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين ﴾

وثانيها ، أن القوة فى الاسلام لا تراد للتخريب والتدمير بل تتغيا التخويف والتحذير ، فذلك قول الله تعالى :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾

وثالثها : أن الراغب فى السلام يجب ان يجاب لرغبته تجنبا لويلات الحرب وإيثارا لسكينة السلام ، فذلك قوله تعالى :

﴿ وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم »

ورابعها : أمر الله تعالى عبادة المؤمنين الى ايثار السلام على اتباع خطوات الشيطان واعتباره معاندة السلام إتباعا لخطوات الشيطان ، فذلك قوله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أدخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾

وخامسها ، أن الحرب قد تفضى بالانسانية كلها الى الفناء وربما ردت الانسان الذى كرمه ربه الى حياة الوحوش الضاريات : إما فى ظلام الغابات ، وإما فى بطون الكهوف والغارات ، فذلك قوله تعالى :

﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن اهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾

ففى هذه الآية من سورة يونس ، تشبيه حال الدنيا التى يستمتع بها اهلوها بحال النبات الذى تزدان به الأرض فى ألوانه المختلفة بين خضرة وحمرة وصفرة

وزرقة . ووجه الشبه بين حال الدنيا فى سرعة إنقضاء نعيمها وبين حال النبات فى زوال بهجته وجفافه ، أن كلا منها عرضة للزوال ، وأن كلا منهما لا يطمئن الى دوام الاستمتاع به إلا جاهل مغرور .

وقد سئل عالم معملى مقدور جمع الله له بين عاطفة الانسان وسعة المعارف النظرية والعلوم التطبيقية ، فقال له السائل : ما هى الأسلحة التى سوف يستخدمها المحاربون فى الحرب العالمية الثالثة اذا نشبت ؟ . فقال العالم المعملى الجليل صدقنى اذا قلت لك ان أحدا لا يعرف ماذا ستكون هذه الأسلحة ، غير أننى شخصيا أعلم على وجه اليقين أن هذه الحرب لو نشبت فلن تكون بعدها حروب لأنها سوف تقضى على الانسان والحيوان والنبات . واذا افترضنا أن الانسان بقى أو بقيت منه بقية ، فإن هذه البقية من الانسان سوف تقاتل أعداءها بالأظافر والأسنان .

فعلى هذه الصورة يتمثل الناس مصيرهم على الأرض اذا ظلت أشباح الحرب تغرى العلماء بالتفنن فى اختراع أساليب الدمار والشقاء الانسانى الرهيب .

ومن هنا تكون الدعوة الى السلام حقا على كل انسان يعتز بتكريم الله له ، كما تكون هذه الدعوى حقا على كل ذى دين الوقوف مع أدب دينه .

ولا يرتاب منصف فى أن الاسلام هو الداعى إلى

السلام . وفى ان المسلمين هم أحق بالدعوة إليه ، من حيث كان الاسلام الذى يدينون الله عليه يأمرهم بأن يكونوا رحماء ، وبأن يكونوا دعاة الى الاخوة العالمية فى ظل الاسلام الذى هو دعوة جميع الأنبياء والمرسلين :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾

﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب * وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ (١٥ الشورى)

ومن أشرف مواطن السلام فى الاسلام الدعوة الى نبذ التعالى بالعنصرية ، إذ كان التعالى بها يحمل معنى العقوق لأبى البشر آدم على ما يقول تعالى :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾

ففى هذه الآيات بيان من الله تعالى بأن إبليس استعلى بعنصره النارى على أبى البشر آدم ، فكان جزاؤه الطرد والابعاد من رحمة الله ، وليس يعرف الناس شرا من أن ينتصر الانسان لعدو أبيه على أبيه .

وكما كان التعالى بالعنصرية عقوقا للأبوة ، كان كذلك ظلما للأخوة إذ كان الذى يتعالى بالعنصرية على إخوته من بنى آدم ، لا يمكنه أن يزعم أن عرقه نقى نقاء كاملا من كل ما يجعله أخا لكل انسان فى كل زمان ومكان . وغاية ما يبلغه الذين يتعالون بالعنصرية لا يجاوز منطقة اللون الابيض أو اللون الأصفر أو ما يتعلق من ذلك بنظرية الألوان .

وغير خفى على اهل الانصاف أن الانسان ـ فى لونه خاضع للأرض التى نبت فيها وللبيئة التى عاش فى أجوائها . ولو قد كان للانسان ان يختار لآثر ان يكون لونه أصفى الألوان ، وعرقه انقى العروق ، وأسرته سيدة للعالمين أو سيدة بين العالمين .

ولهذا جاء القرآن العظيم ينادى الناس بصفة الانسانية التى لاتحدها حدود من عرق ولا تميزها مميزات من لون . فقال تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾

ففى هذه الآية الكريمة من سورة الحجرات ينادى الله عباده ، مبينا لهم أنهم أخوة لأب وأم ثم يأمرهم بعد ذلك ان يتعارفوا واذا لم يكن بد من التفاضل فليكن اساس التفاضل بينهم تقوى الله ، اذ كانت تلك الصورة من التفاضل داعية سكينة وسلام . فكلما ازداد الناس من التقوى زاد اطمئنانهم الى الحياة وأنسهم بها واستمتاعهم بخير الله تعالى فيها ، على عكس التفاضل بالعنصرية فإن الناس كلما تفاضلوا بها ازداد شقاء المجتمع بهم .

ولعلنا لا نقول غير مقول اذا ذكرنا فى هذا الصدد ان التعارف بين الشعوب والقبائل يكون أظهر ما يكون اذا تزوج بعضهم من بعض ، وصاهر بعضهم بعضا ، بمنأى عن الاعتزاز بالعصبيات التى لا خير فيها لفرد ولا لمجتمع ، ويزيدنا ثقة بهذا الذى نقول ان نرى القرآن الكريم يبيح للمسلم ان يصهر الى أهل الكتاب ويتزوج منهم على ما يقول تعالى :

﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾

« الآية الخامسة من سورة المائدة »

فكذلك جاء القرآن الكريم يمقت التعالى بالعنصرية ويلفت الى التخفف من أوزارها والعمل على التوهين من سلطانها .

وغير ذى حاجة الى مزيد بيان ، أن المبادىء الدستورية والوصايا النظرية تحتاج الى التطبيق الذى هو وحده الكفيل بتوضيح المبهم وتفصيل المجمل وتبيين ما يحتاج الى بيان .

وقد كان رسول الله مبينا للقرآن فى مجال التطبيق من طريق القول وطريق الفعل وطريق الاقرار ، على ما يسمع من أقوال ويرى من أعمال . فتلك هى السنة النبوية الشريفة قائمة على قول رسول الله وعمل رسول الله وإقرار رسول الله .

وما كان أصحابه - رضى الله عنهم - ليتركوا أمرا أمرهم به أو نهاهم عنه أو أرشدهم إليه ، إلا وتابعوه عليه طاعة له وإعتزازا بالانتساب إليه ، واستجلابا لرحمة الله

بالوقوف عند حدود الله التى بينها أوفى بيان وأصدقه الرسول النبى العربى الذى بعثه الله رحمة للعالمين وخاتما للأنبياء والمرسلين .

ومن شاء أن يلتمس مثالا لهذه المعانى الشريفة ، فإن بلالا خير مثال تتضح به أمور هذا الباب الجليل من أبواب شئون الاجتماع البشرى فى كل زمان ومكان فذلك حيث روى البخارى ان أمير المؤمنين عمر كان إذا رأى بلالا هش له وانبسط إليه ثم قال : أبو بكر سيدنا وأعتق بلالا سيدنا .

ولعلك لا تضيق ـ رحمك الله ـ بكلمة لا أجد بدا من ذكرها فى هذا المقام ، اذ كان كثير من الناس يستطيبون ان يفلسفوا التعالى بالعنصرية ، فيجعلون له ما يسوغ الأخذ به عند الحراص عليه ، فلا يزيدون المجتمع الاسلامى بذلك السلوك ، إلا شقاء يضرب بهم فى متاهات لا تستبين فيها معالم ، ولا تخفق فى أجوائها أعلام فاذا المجتمع الانسانى كله أشقى ما يكون بهؤلاء وأمثالهم حاضرا ومستقبلا .

ولقد كان من اسلافنا من آثر منطقا عنصريا يلقى به مثيلا له اذ كان لا يفل الحديد إلا الحديد ، فقد قال العلامة الفيلسوف أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : اذا لم يكن بد من الأخـذ بنظرية التعالى العنصرى ،

فان للعرب أن يأخذوا بهذه النظرية على جهة لا ينتفع بها غيرهم من سائر الناس .

ذلك ان بنى آدم ـ فى باب الألوان ـ ثلاثة أصناف فمنهم الأبيض ومنهم الأسود ومنهم الأسمر . والسمرة لون العرب والبياض لون اهل البلاد الباردة ، والسواد لون اهل البلاد شديدة الحرارة . فلأصحاب هذا التقسيم أن يقولوا ان الانسان الابيض كالطعام النىء الذى لم ينضج ، وأما الانسان الاسود فإنه كالطعام الذى زاد عليه النضج فاحترق ، وأما اللون الأسمر فإنه أعدل الألوان ، وأعدل الألوان يستلزم ان يكون صاحبه معتدل المزاج متزن الفكر ، قادرا على حماية نفسه من رذيلة التفريط والافراط فيما أعطاه الله من خير فى تكوينه وسلامة فى تركيبه . فاذا كان لا بد من التحاكم الى العنصرية فان العرب هم سادة الدنيا وسواهم ـ من سائر الناس ـ دونهم فى المنزلة ما دام للحق منطق وللأنصاف سلطان .

ومن هنا آثر الله تعالى الأمة العربية لتحمل الرسالة الاسلامية الى العالمين . تخرجهم بها من الظلمات الى النور ، على ما يقول جل ثناؤه :

﴿ وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت

واسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك * وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك انت العزيز الحكيم ﴾

وقد استجاب الله لابراهيم أبى الأنبياء فجعل من ذريته الأمة العربية ، واختار من هذه الأمة محمدا خاتما للأنبياء والمرسلين ، فأمضى ـ صلوات الله عليه ـ إرادة الله العلى القدير فى أن يرفع عن الانسانية إصر التعالى بالعنصرية وأن يبدلهم بذلك خيرا يتفاضلون به ، إذ لم يكن بد من أن يتفاضل الناس فيما بينهم لأن التنافس أصل فى تكوين الانسان .

وباستصحاب هذا المعنى نرى أن رسول الله هو أول من أعلن حقوق الانسان . وقد كان هذا الاعلام فى منى فى حجة الوداع حيث قام رسول الله مقامه الكريم فى ذلك المشهد العظيم ، ثم قال : ايها الناس ان ربكم واحد ، وأن أباكم واحد كلكهم لآدم وآدم من تراب . لا فضل لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، ثم قرأ الآية الشريفة التى هى الأساس فى دفع بلاء الاستعلاء العنصرى عن الانسانية فى كل زمان ومكان .

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾

« الآية من سورة الحجرات »

وإذا ساغ لمؤرخ ان يجعل من شرط إعلان حقوق الانسان أن يصدر عن مؤتمر دولى ، فإن المنصف لا يستبعد ان يكون إجتماع الناس فى منى فى العام العاشر من الهجرة النبوية الشريفة هو هذا المؤتمر الدولى الذى شهده سلمان ممثلا للدولة الفارسية ، وبلال ممثلا للدولة الحبشية ، وابراهيم ابو رافع ممثلا للدولة المصرية ، وباخوم النجار ممثلا للدولة الرومية .

وباستصحاب هذا المعنى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعلن حقوق الانسان منذ ثلاثة وثلاثمئة وألف عام . فكل دعوة تزعم للناس أنها سبقت الاسلام الى إعلان حقوق الانسان هى ـ بلا ريب ـ دعوى لا يقوم عليها دليل اى دليل .

والله المسئول ان يكتب للانسانية السلامة ، وأن يلهم القائمين على شئونها الرشد حتى لا تصير الدنيا الى صحراء مقفرة لا خير فيها ولا أمل لها فى حياة . والله ولى التوفيق نعم المولى ونعم النصير .

■ ■ ■ ■

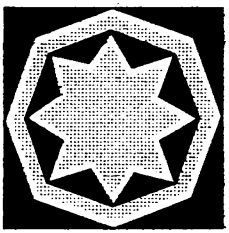

الإســـلام دين وحضـــارة

مما هو فى يقين العقائد ووضوح البديهيات ، أن الدِّين ـ أى دين ـ يقوم على أصول ثلاثة : الايمان بالخالق ، والاحسان إلى المخلوق ، والايقان بالجزاء على الأعمال ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ..

ولست ترتاب ـ حفظك الله ـ فى أن هذا الفصل من الكتاب هو ثامن ثمانية فصول فى ترتيبه ، كما أنك لا ترتاب فى أن تضع هذا الفصل موضع النتيجة المُسَلَّمة فى القضايا المنطقية التى تتألف من مقدمات صحيحة

تترتب عليها نتائج لا مندوحة عن التسليم بها ، والنزول على حكمها هذا . ولست محتاجا فى مبلغ الظن بك إلى من يَلْفِتك إلى الفرق بين الدين وبين الحضارة ، إذ كانت خصائص الدين تكاد تنحصر فى أن المتدين يؤثر الآخرة على الدنيا ، وربما تذرع إلى هذا الايثار بالنظرية التى تزعم للناس أن فى أضعاف الجسد وحرمانه من رغائبه وملذاته تقوية للروح ، ورُقيا بها إلى الملأ الأعلى ، على ما يقرر ذلك فلاسفة ما وراء المادة من الوثنيين وبعض المتدينين .

وأما الحضارة فإنها فى مبلغ ما نعلم ـ عن فلاسفة الاسلام وحكمائه ـ فإنها ذات خصائص ثلاث :

تقوية المسلم جسده بالرياضة ، وتنمية عقله بالمعرفة ، وترقية ذوقِه بالآداب والفنون .

○ ○ ○

ولكل خصيصة من هذه الخصائص سند فى الاسلام لا مندوحة عن التعرض له فى غير ايجاز مُخِل ، ولا إطناب مُمل ، والله ولى التوفيق .

فأما تقوية الجسم بالرياضة فإليه الاشارة بقول الله تعالى فى سورة الأنفال :

﴿ واعِدُّوا لَهُم ما استَطَعْتُم من قُوَّةٍ ومِنْ رِبَاطِ الخيلْ ترَهَبُون به عَدُوّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تَعْلَمُونهم الله يَعْلَمهم وَما تُنْفِقُوا من شَىء فى سَبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تُظلمون ﴾

ووجه الاشارة إلى تقوية الأجسام فى الآية بيَنَّهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة على منبره الشريف ، فذلك حيث قال فيما أخرجه مسلم عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . ألا إن القوة الرمى . ألا إن الله تعالى سيفتح لكم الأرض وستُكْفَون المؤونة فلا يعجزن أحدكم أن يلهُوَ بأسهمه » .

O O O

ففى هذا الحديث يخبر رسول الله بأن الرزق ستكثر أسبابه كثرةً يستغنى بها العرب عن معاناة الصيد طلبا للقوت ، فأراد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يستسلموا لحياة الدعة والاستنامة إلى طرف الكسل ، وإذا كان القوت موفورا والرزق مضمونا باتساع مجاله ، فإن على العرب أن يظلوا يرمون بالسهام عن القسى إرادة قوة أجسادهم وشرح صدورهم .

O O O

وكما أوصى رسول الله بالرمى لتصحيح الأجسام وتقوية الحواس . أمر بالتنافس فى حذق الرمى وتربية الخيل ، وكل ما يكون وسيلة للرياضة التى من شأنها

تقوية الأجسام ، حتى لقد أباح صلوات الله عليه أن يُجعل مقدار من المال لمن يسابق صاحبه فيسبقه فذلك حيث قال صلى الله عليه وسلم :

« **لا سَبَق إلا فى خف أو حافر أو نصل** » .

يعنى صلى الله عليه وسلم بالخف الابل . . وبالحافر الخيل . . وبالنصل السهم . ومعروف أن السَّبَق بفتح الباء هو ما يُجعل لمن يسبق فى هذه الصور الثلاث .

ولكى يظَلّ المسلمون حِراصاً على التزام هذا النوع من الرياضة ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُضَمِّر الخيل يسابق بها ، وإنما يريد بذلك دعوة المسلمين إلى القدوة به وربَّما سبقه فى هذا المضمار بعض العرب ؛ فقد أخرج البخارى وأبو داوود والنسائى عن أنس رضى الله عنه قال : كان للنبى صلى الله عليه وسلم ناقةٌ تسمى القضْباء لا تكاد تُسبق فجاء اعرابى على قعود فسبقها ، فَشَق ذلك على المسلمين ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« **حق على الله تعالى أن لا يرتفع شىء من الدنيا إلا وضعه** » .

○ ○ ○

وكما عُنِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحيوان فى باب الرياضة ، عنى بالرمَّى عن القِسِي بالسهام ، ورَغَّب فيه أشد ترغيب . كما جاء فى الحديث الذى أخرجه أبو داوود عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال :

إن الله ليُدخل بالسهم الواحد ثلاثةً نفر الجنة : صانِعهُ الذى يحتسب فى صنعته الخير ، والرامى به ، ومُنَبلُهُ الذى يناولُه لمن يرمى به ، فارموا واركبوا . وأن ترموا ، أحبُّ إلىَّ من أن تركبوا ، كل لهوٍ باطل ليس من اللهو محمود إلا ثلاث :

تأديب الرجل فرسه ومُلاعبتَهُ اهلَه ، ورميُه بقوسه ونَبْلِه ، ومن ترك الرمَّى بعد ما علمه ـ رَغبةً عنه ـ فإنها نعمةٌ جحدها .

O O O

ولهذا يرى الناظرون فى السُّنَّة النبوية الشريفة أن الكبار والصغار فى عهد رسول الله كانوا يحرصون أشَدَّ الحرص على هذا اللون من الرياضة ، فقد أخرج الامام مُسلم عن فُقَيم اللَّخْمى قال :

قلت لعقبة بن عامر : إنك تختلف بين هذين الغَرضَين

وأنت شيخ كبير ويشق ذلك عليك ، فقال عقبة لولا كلام سمعتهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عانيته ولا قاسيتُه سمعته يقول :

من تعلم الرمى ثم تركه ، فليس منا .

O O O

وعلى مثل هذه العناية بالرمى كان بنو إسماعيل من الشباب ، فقد أخرج البخارى عن سلمةَ بن الأكوع قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفرٌ من أسلم يَنْتَضِلُون بالسوق ، فقال :

إرْمُوا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا .

ومما لا معدى عن التعرض له فى هذا الباب ، أن المُصارعة باب من أبواب الدعوةِ إلى الاسلام وآية الصدق فى هذه القضية ، ما يرويه ابن إسحاق من حديث رُكانة ابن عبد يزيد بن هاشم ، فذلك حيث ذكر أن رُكانة خلا يوما برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض شعاب مكة . فقال له رسول الله :

« ألا تتقى الله يارُكانة وتقبل ما أدعوك إليه ؟ »

قال رُكانةُ : لو أننى أعلم أن الذى تقوله حق ، لَّا تبَعْتك .

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أرأيت إن صارَعتُـك فَصَرعْتُـك أتعلم أن ما أقول حق ؟

قال رُكانةُ : نعم .

فدعاه رسول الله إلى المُصَارعة .

فقام رُكانةُ إليه . . فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم به أضْجَعَهُ وهو لا يملك من نفسه شيئا . ثم قال عُدْ مرة أخرى يامحمد . فعاد فَصَرعَهُ أيضا . . فقال رُكانةُ : والله إن هذا لعجيب . . ثم ذهب إلى قومه فقال يابنى عبد مناف ! ساحروا بمحمدٍ أهل الأرض . . فوالله ما رأيت أسحرَ منه قط . ثم أخبرهم بالذى صنعهُ به رسول الله صلى الله عليه وسلم . . من صَرعِهِ مرتين . **فهذا هو معنى أن المصارعة . باب من أبواب الدعوة إلى إعتناق الاسلام .**

○ ○ ○

وقد اعتنق رُكانةُ الاسلام بعد فتح مكة .

وروى عن رسول الله حديثا يقول فيـه صلى الله عليه وسلم :

« **إن لكل دين خُلقًا ، وخلق الاسلام ، الحياء** » .

وليس فى وسعِ من يُلم بتاريخ رُكانةُ أن يرى صرع رسول الله مرتين أمراً ناشئاً عن قوةً ذاتية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل لابد له من أن يرد ذلك إلى معنى آخر وراء القوة البدنية ، يرجع إلى عناية الله جل وعز برسوله الكريم .

ذلك أن رُكانةُ وَرَّثَ إبنه يزيد وحفيده على بن يزيد مالا يكاد يصُدقه عقل ، إذ كان على حفيد رُكانةُ إذا جمح به الفرس ، ضم عليه فَخِذيه ضمَّةً يَنْفَق منها . . على ما يروى ذلك الامام السهيلى فيقول : لقد أُعطِى حفيدُ رُكانةُ من الأيد والقوةِ مالم يُعطهُ أحد . وقد ذكر الفاكهى من أخباره مع يزيد بن معاوية أنه تأبَّط ذات يوم رجُلين معروفين بالقوة . . ثم جرى بهما وهما تحت إبطيه .

فأخذا يصيحان إنه الموت إذا لم تطلقنا . . فَأَطْلقهما . . فنجيا من الموت .

O O O

والعبرة فى ذلك أن هذا الرجل الذى يقتل الفرس بضمة فخذيه عليه ويتأبط رجلين لا يستطيعان التخلص منه ، لابد أن يكون من القوة بمكان مكين . . فإذا صارَعَهُ رسول الله فصَرعَهَ مرتين ، فتلك آيةٌ بينةٌ على أن النبى لم يصرعه بقوته الذاتية ، وإنما تدخلت فى ذلك عناية الله تدخلا شرح الله به صدره لاعتناق الاسلام .

O O O

وليس يَعْزُب عنك أن للقوة الجسمانية فى الاسلام منابع عدة : إحداها العناية بالنظافة . . نظافة الثوب والبدن والمكان . وثانيها الحرص على الاقتصاد فى الطعام والشراب وتجنب الاستسلام لسلطان الشهوات . وثالثها التحرر من سلطان الكيوف التى تفسد على الانسان سلامة حِسه وتجعله عبداً للمسكرات والمُفَتِّرات والمُخدِّرات ، وكل ما يعرض سلامة البدن لخطر أو ضرر . ومن أَجَل منابع القوة الجسدانية حركات

الصلاة من الركوع والسجود على صورة تستقر فيها الأعضاء وتسكن ، كما جاء فى حديث حذيفة حين رأى رجلا لا يتم ركوعه ولا سجوده . . فقال له إنك ما صليت ولو أنك مت على هذه الصلاة مت على غير الفطرة التى فطر الله محمدا . . فلابد من استقامة الظهر فى الركوع وفى السجود ، وهذه الصورة بلا ريب تمرين للجسم وتطويع للمفاصل وتربية للعضلات وربما تضمن ذلك كُلةً فائدةً حرص فقهاء الاسلام على التذكير بها ، وهى التبكير بالنوم بعد صلاة العشاء والتبكير باليقظة قُبيل صلاة الفجر على ما ورد ذلك فى حديث أم المؤمنين عائشة ، فقد رأت ـ رضى الله عنها ـ قوماً من المسلمين يتحدثون بعد صلاة العشاء فأرسلت إليهم من يقول لهم أريحوا الكتاب تعنى ـ رضى الله عنها ـ أن الملائكة الموكلين بكتابة أعمال الناس وأقوالهم ينبغى أن يستريحوا من كتابة ما تقولون فعليكم إذن أن تقوموا إلى النوم .

وأما حديث التكبير قبيل الفجر فقد روى فيه أبو هريرة أن الشيطان يوسوس فى صدر المسلم ما يجعله يستسلم إلى النوم ، فإذا استعاذ المسلم بالله منه نهض من نومه فتوضأ فصلى ، فأصبح بذلك طيب النفس منشرح الصدر ، وإلا أصبح حليف الكسل ضائق الصدر .

فالتبكير بالنوم صحة للأجسام ومعوان على تقويتها ، والتبكير باستقبال الصبح فائدة للسمع والبصر وسائر الحواس .

O O O

ومن منابع القوة الجسمانية : السِّواك الذى كان رسول الله يلزمه فى نفسه ويأمر به أمته .

فأما لزومه السواك ، فقد أخرج البخارى ومسلم وأبو داوود عن حذيفة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك . يعنى يدلك فاه به .

OOOO

وكذلك قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُوضَعْ له وضوءه وسواكه فإذا قام من الليل ، يتخلى ثم يستاك ، وكان لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا تسوّك قبل أن يتوضأ .

فأما أمره صلى الله عليه وسلم أمته بالسواك ، فقد جاء فى الحديث الذى أخرجه النسائى عن أم المؤمنين أيضا . . قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **السواك مطهرة للفم مرضاة لله تعالى** » .

O O O

وقد أخرج أبو داوود والترمذى عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« **لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة ولأخرت صلاة العشاء إلى ثلث الليل** » .

وقد كان زيد بن خالد راوى الحديث ، يشهد الصلاة وسواكه على أذنه موضع القلم من أذن الكاتب ، لا يقوم إلى الصلاة إلا استاك ثم رده إلى موضعه حرصا على أن

يستند بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على السواك فى خاصة نفسه ، وفى عنايته بأمر أمته . . ما تؤيده النظرية الحديثة القائمة على أن نظافة الأسنان وسيلة طيعة إلى حفظ الصحة وقوة الجسد .

○ ○ ○

هذا وأما تنمية العقل بالمعرفة ، فإن تكريم العلم وأهله ، يكاد يكون من البديهيات فى شريعة الاسلام ، وآية ذلك ما رواه أبو الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من سلك طريقاً يطلب به علما سلك الله به طريقاً من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة لبدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهماً ولكنهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وفى الكتاب العزيز بيان من الله تعالى بتوقيره لأهل العلم كما فى الآيات من سورة فاطر .

﴿ **أَلَم تَرَ أَنَّ الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا بـه ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلف ألوانها وغرابيبُ سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك . إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ أن الله عزيز غفور** ﴾

فقد إنتظمت هاتان الآيتان من هذه السورة المعارف العلمية المعملية وعلم طبقات الأرض وعلم الحيوان فى إختلاف ألوانها إختلافاً لا يعلمه إلا أولئك العلماء الذين يحملهم علمهم على خشية الله وهيبته ورجاء ثوابه وخوف عقابه ، فى حين أن الله تعالى يوقرهم ويثيبهم أعظم الثواب على معرفتهم قدره وإحترامهم أمره . وليس يعرف الناس وراء هذه المنزلة الشريفة منزلة تدانيها فى تكريم العلم والعلماء .

O O O

لقد كرم الله تعالى العلماء تكريما خلدته آيات الكتاب الكريم ولما كان العلم بهذه المنزلة الشريفة عند الله وعند الناس ؛ أمر الله تعالى عباده أن يسيروا فى الأرض ليستمعوا إلى أنباء تنفعهم وينظروا إلى آيات ترفع خسيستهم وتزيدهم إيمانا .

والحضارة تقوم - أكثر ما تقوم - على هذين الركنين من الانتفاع بأنباء القرون الخالية واستجلاء آيات الله فى كونه العظيم على ما يقول تعالى فى سورة السجدة .

﴿أو لم يهد لَهُمَ كَمْ أَهْلَكْنَا من قَبلهم من القُرونِ يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون . أو لم يَروا أَنّا نَسُوق الماء إلى الأرض الجُرُزِ فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾

ولقد جعل الله تعالى الضرب فى الأرض - سيراً بالنهار - أو سُرى بالليل - وسيلة إلى الظفر بقلب يعقل أو أذنٍ تسمع .

ذلك أن كثرة الآيات الماثلة فى إبداع الكون العظيم تدعو إلى التفكير عن طريق الموازنة والمقارنة والاستنتاج ، فإذا نتيجة ذلك عقل لا تنقصه الحجة التى يتذرع بها إلى الايمان برب العالمين غير مصروف عن ذلك بخداع مخادع أو تسلط متسلط .

وبتدبر هذه المعانى يستبين على غاية الوضوح ، أن تنمية العقل بالمعرفة يستند المسلم فى تحصيله إلى الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة .

هذا وأما ترقية الذوق بالآداب والفنون ، فإن اللغة العربية فيما إنتظمته من شعر ونثر وحكمة ومثَلَ ، قد ظفرت بلقب لم يظفر به غيرها من سائر اللغات ، وذلك اللقب هو أنها اللغة الشاعرة كما يتراءى ذلك لمرتاديه فيما قرره العلامة ابن جنى على سبيل الاجمال فى كتابه الخصائص فى فقه اللغة ، وكما فصّل ذلك أدق تفصيل وأصدقه الأستاذ عباس العقاد فى كتابه « اللغة الشاعرة » ، وفى ذروة ذلك كله ، القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ومن شاء أن يلتمس فى القرآن صورا من الأدب الرفيع الذى يحلق بالذوق العربى فى أرفع الآفاق ، فقد تكفل بذلك الامام عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه : أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز .

○ ○ ○

هذا وان شئت سندا فى التراث الاسلامى تستمد منه حضارة الاسلام عملها فى ترقية الأذواق ، فاليك هذا السند الذى يقوم على إباحة التصوير وصنع التماثيل ، بما تُؤْمَنُ معه النكسة إلى العبادات الوثنيه . وسند هذا الرأى ماثل على طرف الثمام فى الحديث الذى تقول فيه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : كنت ألعب بالبُنَيَّات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته . وكان لى صواحب يلعبن معى ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل البيت يستخفين فيسر بهن إلى ، فيلعبن معى .

○ ○ ○

وليس يخفى عليك أن مراد عائشة بالبُنيأَت ، إنما هى اللعب ـ على هيئة التماثيل الصغيرة ، فإذ قد كان رسول الله يحضر ذلك ويطلع عليه ، فإن أحداً لا يملك أن يُحرِّم تلك الدُّمى مع مماثلتها للأصنام التى جاء رسول الله لتحطيمها . ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ليسكت على منكر ، فإذ قد رضى ذلك لأم المؤمنين عائشة ، فقد أباحه لمعنى يدعو اليه ، مهما يكن ذلك المعنى موصولا بحرصه على ملاطفة زوجته بما يسرها ويرفه عنها ، أو كان موصولا بما يشتمل عليه من معنى حضارى ينتفع به المسلمون ويدفع عن الاسلام شبهة الحرج التى يلصقها به المتعصبون عليه من أولئك الذين يطيب لهم أن يجعلوا الدعوة المحمدية عقبة كأداء فى طريق الحضارة ممثلة فى الاعتزاز بالفنون الجميلة القائمة على التصوير والنحت والغناء وما إلى ذلك مما لا يناقض أصلا من أصول الاسلام ولا يعاند قاعدة من قواعده الشريفة .

مكتبة المهتدين

oooo

● الشيخ محمد عبده ●

وليس مما يبعد عن ذهنك ـ رحمك الله ـ أن الأستاذ الامام المصلح الشيخ محمد عبده ، ربما كان يتمثل هذا الحديث النبوى الشريف فى أثناء تطوافه فى بلاد الغرب وزيارته معاهد الفن ، يكتب عنها ويستحسن حفظ آثارها النادرة ، وتحفها النفيسة ، لأنها من قبيل حفظ العلم وتصوير خفايا النفس الانسانية . فذلك حيث كتب فصلا من فصول رحلاته أمضاه بتوقيعة ونشرته مجلة المنار ، عن دور الصور والآثار فى جزيرة صقلية ، وفى هذا الفصل يقول ما نؤثر أن نرويه لك بنصه :

وهؤلاء القوم لهم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق ، ويوجد فى دار الآثار ـ عند الأمم الكبرى ما لا يوجد عند الأمم الصغرى كأهل صقلية وخذ مثلا لذلك ، أنهم يدونون التاريخ الذى رسمت فيه تلك الصورة كما يذكرون الفنان الذى رسمها ، وهم يتنافسون فى إقتنائها تنافساً يدعوهم إلى بذل كثير من المال ، إذ كانوا يعتبرون الصور المتقنة والتماثيل المعبرة من أفضل ماترك المتقدم للمتأخر . وكلما كانت الصورة أقدم كانت أغلى ثمنا وأعظم قيمة وكان عليه القوم أشد حرصا عليها ورغبة فى أقنائها . ولعلك تسأل عن السبب الذى من أجله حرص القوم هذا الحرص وبذلوا هذا البذل وتنافسوا ذلك التنافس ؟

وجوابى لك على سؤالك هذا يغنيك عنه أن تتأمل فى إقبال أسلافك على الشعر ، يحفظونه ويضبطونه فى دواوين ويبالغون فى تحريره وخصوصاً شعر الجاهلية فى عناية الأوائل بجمعه وترتيبه وتحقيقه وشرحه ؟

فإذا عرفت ذلك مقتنعا به راضيا عنه ؛ أمكنك أن تعرف السبب فى محافظة القوم على هذه المصنوعات من

الرسوم والتماثيل ، إذ كان لا يغيب عن فطنتك أن الرسم ضرب من الشعر الذى يُرى ولا يُسمع ، وأن الشعر ضرب من الرسم الذى يُسمع ولا يُرى ، فهذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص فى مختلف الشئون ومن أحوال الجماعات فى شتى المواقع ، ما يستحق بسببه أن يُسَمَّى ديوان الهيئات والأحوال البشرية . وإذ كان الشاعر يستطيع بدقة حِسِّه وقُوةِ ملاحظَته أن يُجلِّ لك الخواطر الموغلة فى الاحتجاب حتى كأنك ترى ما تنطوى عليه الصدور عياناً بياناً ، فإن المثالين والمصورين يصورون لك الانسان أو الحيوان فى حال الفرح والرضا والطمأنينة والتسليم ، ثم يصورونها فى حال الجزع والفزع والخشية والخوف ، على أنك لا تجهل صعوبة التفرقة اللغوية بين هذه المعانى : الخشية والجزع ، والفزع وربما اعْتَصَرْت ذهنك لتحديد الفروق ، فرأيت أن ذلك مما لا يسهل عليك فأما إذا نظرت إلى الرسم الذى هو شعر صامت ، فإنك تجد الحقيقة بارزة لك ، تتمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حِسُّك .

O O O

هذا ثم يستطرد الأستاذ الامام إلى الحكم الشرعى فى هذه الصور والتماثيل فيقول : ربما تَعْرِضُ لك مسألة عند قراءة هذا الكلام فتسأل : ما حكمَ هذه الصور فى الشريعة الاسلامية ؟ إذا كان القصد منها من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجسمية هل هى حرام أو مكروه أو واجب أو مندوب أو جائز ؟ فإذا سألت هذا السؤال ، فإننى أقول لك : إن الراسم قد رسم والفائدة محققةٌ لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد إنمحى من الأذهان . فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الأمر ، وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتى وسوف يُجيبك مشافهةً ، ثم إنك إذا أوردت عليه الحديث الشريف :

« إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » .

فإن الذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك : إن الحديث جاء والناس حديثو عهدٍ بالوثينه . وقد كانت الصور آنئذٍ تُتخذُ من أجل سببين : أولهما اللهو وثانيهما التبرك بتمثال من ترسم صورته ، والأول مما يبغضه الدين ، والثانى مما جاء الاسلام لمحوه ، والمصور فى الحالين

شاغلٌ عن الله أو ممثلٌ للاشراك به . فإذا زال هذان العارضان وكانت الفائدة هى المقصودة ، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات ، وقد صُنع ذلك فى حواشى المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء ، مع أن الفائدة فى نفس المصاحف موضع نزاع وأما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكرنا على أن شبهة العبادة الوثنية تزول عند النظر إلى فن السماع أو فن الغناء والموسيقى لأنه من الفنون التى لا غبار عليها ولا تحريم لشىء منها إلا ما كان ممتزجا بالخلاعة أو مثيرا للغرائز ، فالتحريم هنا لا يخص الفن الجميل بل يعم الخلاعة والاثارة وكل ما يمتزج بالمحظورات على إختلافها .

وقد يُحرم اللباس الخليع أو الحديث الخليع فلا يقال إن هذا التحريم يمنع الكساء أو يمنع الكلام ولكنه يمنع ما هو ممنوع ويبيح ما عداه .

والمسلمون مأمورون بترتيل القرآن ، لا يرون فى قداسته ما ينهاهم أن يقرأوه ويسمعوه مرتلا فى المساجد

والمحاريب ، بل يرون فى ذلك معوانا على بلاغ أثره وطمأنينة الاصغاء إليه ، وأخرى أن يكون ذلك شأن ما يَطْرق الأسماع منغوما من سائر الكلام .

O O O

ولوكان فى الغناء ما يُكره أو يعاب لكان أولى الناس أن يمنعه عمر بن الخطاب فى صرامته وشدته على نفسه وعلى غيره فى رعاية أحكام دينه ، ولكنه رضى الله عنه كان يبيح الغناء ويدعو إليه .

ومن أخباره فى ذلك ما رواه نائل مولى عثمان بن عفان قال : خرجت مع مولاى عثمان بن عفان فى سفرة سافرناها مع عمر فى حج أو عمرة ، وكان عمر وعثمان وابن عمر أيضا ، وكنت أنا وابن عباس وابن الزبير فى شبان معنا وكان معنا رباح النهرى ، فقلنا له ذات ليلة ؟ غن لنا حُداءً فقال مع عمر ؟ قلنا نعم مع عمر فإن نهاك إنتهيت فَحَداَ حتى إذا كان السحر قال له عمر كُفْ

يا رباح فإن هذه ساعة ذكر . فلما كانت الليلة الثانية قلنا يا رباح أنصب لنا نصب العرب وإن نهاك عمر إنتهيت فنصب لنا نصب العرب حتى قال له عمر فى السحر ما كان قاله أمس .

فلما كانت الليلة الثالثة قلنا له غننا يا رباح غناء القيان ـ الجوارى المغنيات ـ فغَنَّى فما تركه عمر أن قال له أمسك فإن هذا ينفر القلوب .

○ ○ ○

وذات يوم جاءه قوم فقالوا له : إن لنا إماما يصلى بنا العصر ثم يغنى بأبيات من الشعر فقام معهم إلى منزله واستنشده تلك الأبيات فانشده :

وفــؤادى كلمــا نبــهتــه
عــاد فى اللذات يبغى تعــبى
لا أراه الــدهــر إلا لاهيــا
فى تمــاديــه وقــد بــرح بى

○ ○ ○

ياقرين الســوء ما هذا الصبــا
فَنِى العمــر سُــدىً فى اللعب
وشــبــاب بــان مــنى ومضــى
قبــل أن أدرك منــه أربــى

○ ○ ○

لا كنت يانفسى ولا كان الهوى
إتــقــى الله وخــاف وأرهــبــى

○ ○ ○

فجعل عمر يردد البيت لا كنت يانفسى ولا كان الهوى ثم يبكى ثم قال بعد أن هدأت نفسه من كان منكم مغنيا فهكذا يغنى .

وذات يوم خرج عمر للحج ومعه خَوَّات بن جُبير الانصـارى وأبو عبيـدة بن الجراح وعبـد الرحمن ابن عوف فسأل القوم خوَّاتا أن يغنى من شعر ضرار فقال عمر : دعوا أبا عبد الله يغنى من بُنيَّات فؤاده . قال خوَّات ـ رضى الله عنه ـ فما زلت أُغنيهم حتى كان السحر . فقال عمر إرفع لسانك ياخوَّات فقد أَسْحَرنا .

هذا ومن يقل إن ابن الخطاب كان أشد الخلفاء صرامةً فى النهْىْ عن المحظور فإنه لم يبالغ فى وصفه ، وها هو ذا يستمع إلى الغناء بالشعر فيستمع إلى فَنّين من أعم الفنون الجميلة بين الناس ، ولا ينكر الغناء لِذاَته ولا الشعر لِذاَته وإنما يُنكرهما إذا اشتملا على لهو يُنَفر القلوب كما قال هو نفسه رضى الله عنه وأرضاه ولعلك ـ حفظك الله ـ بعد أن الممت بما دعا اليه الاسلام من تقوية الأجسام بالرياضة ، وتنمية الأفكار بالثقافة ، وترقية الأذواق بالفنون الجميلة من نحت وتصوير وشعر وموسيقى وغناء ، نقول لعلك بعد ذلك قد أَسَغْتَ ما قررنا من **أن الاسلام دين معه خصائص الدين ، وحضارة** معها خصائص الحضارة ، فلست تنكر ولا تسمح لأحد أن ينكر ،أن الاسلام حضارة ودين .

والله الهادى إلى سواء السبيل .

ونختم القول بما بدأنا به هذا الكتاب من حمد الله تعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، يستديم لأهل الايمان أفاويق النعماء ويستنيم عنهم أهاويل البلاء ويليق بجلال ذى الجلال والاكرام ، فإنا لا نحصى ثناءً عليه ، هو سبحانه كما أثنى على نفسه .

صلى الله عليه وسلم على محمد وآله الأبرار وأصحابه الأخيار وعلى جميع إخوته من الأنبياء والمرسلين .

مصر الجـــديدة

يوم الاثنين السادس عشر من شهر شعبان ١٤٠٤ هـ

al-maktabeh
مكتبة
المهتدين

خاتمة الكتاب

أما وقد بلغنا بك هذه الغاية من القول بعد هذا المشوار الطويل ، فقد آن لنا ان نريح ونستريح ، وحسبنا أننا أرضينا رغبتنا فى تيسير السبيل لأبنائنا وبناتنا الى لون من الثقافة يحملونه الى دنيا الناس صلاحا لشئون الاجتماع البشرى الذى لا يحتاج الى شيء ، حاجته الى الحرية الشاملة والعدالة الكاملة والسلام العزيز ، وهى الأصول الثلاثة التى قامت عليها حضارة الاسلام .

وكما افتتحنا هذا الكتاب بحمد الله ، والضراعة إليه ، أن يأخذ بنواصينا الى الخير ، ويقيمنا على حلق الطريق ، نختتمه بشكره تعالى على ما هدانا إليه ووفقنا له ، بلسطين الى الله سبحانه أكف الضراعة ، أن يغفر لنا ما عسى أن يكون نزوة من نزوات النفس ، أو هاجسة من هواجس الغرور ، والمعصوم من عصم الله ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وقد كان الفراغ منه فى يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر شوال ١٤٠٣ هـ موافقا الرابع من شهر أغسطس ١٩٨٣ م . وذلك فى ضاحية مصر الجديدة من ضواحى القاهرة ، أعزها الله ، وجعلها ملاذا للعروبة ، ومعاذا للاسلام . والله تعالى سميع مجيب الدعاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير وبالاجابة جدير ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه وعلى جميع إخوته من الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين ،

● أحمد حسن الباقورى

● محـــتويات الـــكتاب

ص

— الاهـــــداء ٣
— طليعة الـــكتاب ٥
— الدين والتـــدين ٩
— الدين فى تكوين الانسان فطرة ١٩
— وقفة لا بد منها ٢٧
— الدين فى فطرة الانسان نعمة ٣٧
— الدين على لسان الأنبياء واحد ٤٧
— الايمـــــان درجـــات ٥٩
— تيسير التدين استبقاء لنعمة الدين ٧١
— الاسلام سماحة وســـلام ٨٥
— الاسلام دين وحضـــارة ١٠٧
— خـــاتمة الـــكتاب ١٣٧

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٤/٣٣٩٤

الترقيم الدولى ٤ - ٠٧١ - ١٢٤ - ٩٧٧ - ISBN